

ظَاهِرَةُ التَّانِيثِ

بين اللغة العربيّة
واللغات السّامية
دراسة لغويّة تأصيليّة

تأليف
الدّكتور اسماعيل المحمد حمّاية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة
فرع المدينة المنورة

ظَاهِرُ التَّائِيثِ

بين اللغة العربيّة

واللغات السّامية

دراسة لغويّة تأصيليّة

تأليف
الدكتور أسامة أحمد محمد عمّارة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
فرع المدينة المنورة

مركز الكتاب العالمي

عمان - الأردن

الإهداء

وددت لو أن هذه السطور همسات عصفور، أو نغيمات شعر تنساب إلى
عشي الدافء: أسرتي: أم أحمد، وأحمد، وحنان، وأنس، ومالك.

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

مركز الكتاب العلمي

ص. ب (١١٣) الجبيهة هاتف ٨٤٢٨٨٧

عمّان - الأردن

المحتوى

المقدمة.....	٥
تعليمات للكتابة العبرية والسريانية وما يقابلها بالعربية واللاتينية.....	٨
الحركات السريانية.....	١٠
جنس الاسم في اللغات السامية.....	١١
المؤنث الحقيقي والمؤنث اللغوي.....	١٥
أصل التذكير والتأنيث لغوياً.....	١٧
التأنيث المجازي والتذكير المجازي.....	١٩
فئات أسماء مجازية اتفقت بعض اللغات السامية على تأنيثها أو تذكيرها.....	٢٣
دلالة الصفات المؤنثة بغير علامة تأنيث.....	٢٤
الميل إلى التخصيص في اللغات السامية من خلال تحديد الجنس.....	٢٦
التأنيث القياسي.....	٢٩
وقفه تأصيلية مع بعض علامات التأنيث.....	٣١
أولاً: التاء التي فتح ما قبلها.....	٣١
ثانياً: التأنيث بالتاء من غير فتحة تسبقها.....	٣٥
من بقايا التأنيث بالتاء التي سكّن ما قبلها.....	٣٩
منه ٣٩، كلتا ٤٠، ذات ٤٠، ذَيْثٌ وَكَيْثٌ ٤١، عَفْرِيت ٤٢، اللات ٤٣	
تاء التأنيث أم تاء العوض؟.....	٤٥
ثالثاً: ألف التأنيث.....	٤٩
الجمع وعلامات التأنيث.....	٥٢
التأنيث والتذكير في العناصر الإشارية.....	٥٥

٥٥ أولاً: الضمائر
٥٥ ١- ضمائر التكلم
٥٥ ٢- ضمائر الخطاب
٥٥ أ- في الأفراد
٥٦ ب- في الجمع
٥٦ ٣- ضمائر الغيبة
٥٦ أ- في الأفراد
٥٧ ب- في الجمع
٥٨ التذكير والتأنيث في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة
٥٩ التذكير والتأنيث في الأفعال
٦٠ أ- الفعل الماضي
٦٤ ب- الفعل المضارع
٦٨ ج- فعل الأمر
٦٨ المراجع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وبعد:

فليست الدراسات التي تناولت ظاهرة التذكير والتأنيث بقليلة. فقد تنبّه العلماء لذلك منذ زمن مبكر، دَرَسَهَا الفَرَّاء (٢٠٧هـ)^(١) وسعيد بن إبراهيم التستري (٣٦١هـ)، وابن جنّي (٣٩٢هـ)، وأبو البركات بن الأنباري (٥٧٧هـ)... وغيرهم. ولعلّ أوفى دراسة من دراسات القدماء لهذا الموضوع تلك التي قام بها أبو بكر الأنباري (٣٢٨هـ) في كتابه «المذكر والمؤنث».

بيّد أن هذا الموضوع ظلّ شائكاً حتى لقد وصفه بعض الباحثين^(٢) بأنّه من أعسر ما يواجهه الباحث اللغوي.

ولا شكّ في أن جهود القدماء كانت مفيدة قيّمة في بحث هذه الظاهرة؛ فقد استطعنا من خلالها أن نقف على القواعد الأساسية للتأنيث القياسي وصيغه، والقوائم الإحصائية للمؤنثات السماعيّة. وقد بذل علماء السلف جهوداً طيّبة في ترتيب هذه القواعد والقوائم، وتبسّطوا في عرضها وشرحها، وإنّهم كانوا نظماً كما فعل ابن الحاجب وابن مالك وغيرهما. ولكن مجال البحث ما يزال قائماً. فقد واجهت القدماء مسائل كثيرة لم تُحلّ. وقد اشتدّ النزاع حولها؛ فسيبويه — مثلاً — كان غامضاً أحياناً في موقفه من التاء في نحو: بنت وأخت وهنت، أهي تاء التأنيث أم تاء العوض؟ وأمّا ابن منظور فيشدّد النكير على من يعدّها للتأنيث. وقد عدّها أبو البركات الأنباري للتأنيث.

وثمة مسائل أخرى لم تواجه القدماء لأنّها لم تطرح ابتداءً، كالتاء في كثير من الكلمات، نحو: السبت، والرغوت، والرحوت.. ولكن علم الساميات فتح المجال إلى اعتبار التاء في هذه الكلمات ونحوها للتأنيث.

(١) تشير السنة المذكورة بعد اسم العلم إلى تاريخ وفاته.

(٢) انظر بير جشتريسر ص ١١٥.

يَبْدُ أن ما يُسَوِّغ لنا بحث هذه الظاهرة من جديد ليس بهذا ولا ذاك من المسائل الجزئية التي لا يُخرج الخلاف فيها عن إطارِ ثِراقِبٍ فيهِ الظاهرة من واجهة واحدة، إنَّ ما يُسَوِّغُ بحث هذه الظاهرة أن أدوات البحث اللغوي وإمكاناته ومناهجه قد تيسرت ونمت، فكان علينا — حيثما استدعى الأمر — أن نفيد من هذه الأدوات في زيادة الإضاءة حول الظاهرة لكي نستكمل الصورة، ونستجلي معالمها التي لم تستطع الأدوات القديمة أن توضحها.

وتقوم هذه الدراسة على منهج لغوي مقارن، درست فيه ظاهرة التأنيث في العربية على ضوء دراسة هذه الظاهرة في شقيقاتها من اللغات السامية كالسريانية والعبرية والحبشية والأكدية وغيرها. وهي دراسة تأصيلية تحاول أن تقدم الحلّ لتساؤلات عديدة تجول في النفس من مثل:

ما هي وظيفة علامات التأنيث، فإن كانت للتمييز بين المذكر والمؤنث، فلماذا احتاجت اللغات السامية — ومنها العربية — إلى التمييز بين المذكر والمؤنث، بغير هذه العلامات، فقليل: رجل وامرأة، وحمار وأتان، وجل وناقة. ولم يُقل — عادةً — في امرأة: رجلة، ولا في مؤنث تيس: تيسة.

ولماذا قيل: امرأة عاقر وحامل وجريح وصبور بدون علامة للتأنيث؟ ولماذا عوملت الكلمات: نفس، وأرض ويثر.. معاملة المؤنث في كثير من اللغات السامية دون أن تلحق بها علامة من علامات التأنيث؟

ولماذا تعددت علامات التأنيث، فلم تكن واحدة، فهي في العربية التاء المربوطة والألف الممدودة والألف المقصورة، وقد تعددت في كثير من اللغات السامية الأخرى؟ ولماذا استخدمت علامات التأنيث في نحو «سَحرة» و «مَهْرَة»؟

ولماذا نجد أسماء تنتهي بتاء التأنيث جاز جمعها باعتبار أصلها الخالي من التأنيث، نحو: دمية — دُمى، وجفنة — جفان، وذروة — ذُرَى؛ وهل لهذا من نظير في اللغات السامية الأخرى؟ وهل نجد في غير العربية من أخواتها الساميات ألفاظاً تعامل معاملة المؤنث وكان من حقها أن تذكر، نحو أَرْزَب وضَبْع؟

وقد سعت هذه الدراسة إلى أن تكون شمولية، فتناولت جنس الاسم في اللغات السامية، وأصل التذكير والتأنيث لغوياً، والتأنيث الحقيقي والمجازي، والقياسي والسماعي، وعلامات التأنيث في الأسماء والأفعال إلى غير ذلك من المباحث. نسأل الله العليّ القدير أن يسدّد خطانا وأن يغفر زلاتنا وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه.

د. إسماعيل أحمد عمايرة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
المعهد العالي للدعوة الإسلامية
قسم الاستشراق
المدينة المنورة

غرة رمضان المبارك سنة ١٤٠٦هـ

تعليمات للكتابة العبرية والسريانية وما يقابلها بالعربية واللاتينية^(١)

بالحروف اللاتينية Transcription	ما يقابلها بالعربية	الأبجدية السريانية			الأبجدية العبرية	
		في آخر الكلمة	في الوسط	في أول الكلمة	في آخر الكلمة	في أول الكلمة
a	ا		ا	ا		א
b	ب	و, ح	ح	ح		ב
g	ج	ج, ح	ح	ح		ג
d	د					ד
h	هـ		هـ	هـ		ה
o	و		و	و		ו
z	ز		ز	ز		ז
h	ح	و, ح	ح	ح		ח
h	ط					ט
t	ث	ث, ط	ط	ط		ת
y (i)	ي	ي, ح	ح	ح		י
k	ك	ك, ط	ط	ط	ך	כ
i	ل	ل, ط	ط	ط		ל
m	م	م, ط	ط	ط	ם	מ
n	ن	ن, ط	ط	ط	ן	נ
g	ج	ج, ح	ح	ح		ג
h	هـ	هـ, ح	ح	ح		ה
f	ف	ف, ح	ح	ح	ף	פ
q	ق	ق, ح	ح	ح	ץ	צ
q, k	ق	ق, ح	ح	ح		ק
r	ر	ر, ح	ح	ح		ר
s	س					ש
s	ش					ש
t	ث	ث, ط	ط	ط		ת
l	ل		ل	ل		ל

(١) لقد استعملنا في هذا البحث الأبجدية العبرية والأبجدية السريانية والحركات الكتابية في اللغتين المذكورتين، ولذا كان لزاماً أن نبدأ بالتعريف الموجز بها، وبما يقابلها بالعربية، وبالحروف اللاتينية بما يتناسب مع الأصوات السامية.

الحركات العبرية

١ - الحركات الصغرى

الحركة	تسميتها	اللام مشكولة بها	طريقة النطق بها
ֿ	פתח	פֿ	لَ
ֿֿ	סגול	פֿֿ	الـ (بالإمالة) Lé
ֿֿֿ	חיריק קטן	פֿֿֿ	لِ
ֿֿֿֿ	חולם קטן	פֿֿֿֿ	لُ (بالضمّة المفتوحة) Lo
ֿֿֿֿֿ	קבוץ	פֿֿֿֿֿ	لُ

٢ - الحركات الكبرى

الحركة	تسميتها	اللام مشكولة بها	طريقة النطق بها
ֿֿֿֿֿֿ	קמץ	פֿֿֿֿֿֿ	لا
ֿֿֿֿֿֿֿ	צירה	פֿֿֿֿֿֿֿ	لي (بالإمالة) Lé
ֿֿֿֿֿֿֿֿ	חיריק גדול	פֿֿֿֿֿֿֿֿ	لي
ֿֿֿֿֿֿֿֿֿ	חולם גדול	פֿֿֿֿֿֿֿֿֿ	لو (بالضمّة المفتوحة) Lo
ֿֿֿֿֿֿֿֿֿֿ	שדרוק	פֿֿֿֿֿֿֿֿֿֿ	لُو

الحركات السريانية
(حسب النظام الغربي، أي: اليعقوبي)

الحركة	تسميتها بالسريانية	توضيح
١	Ptāhā	a وهي فتحة قصيرة، ويقابلها من الحروف اللاتينية
٢	Zqāfā	ō وهي ضمة طويلة مماله ^(١) ، ويقابلها من الحروف اللاتينية
٣	Rbāṣā	e وهي كسرة مماله، ويقابلها من الحروف اللاتينية
٤	Hbāṣā	t وهي كسرة طويلة ويقابلها من الحروف اللاتينية
٥	‘Eṣṣā	u وهي ضمة طويلة أو قصيرة، ويقابلها من الحروف اللاتينية

(١) وهي بطريقة النطق الشرقية فتحة طويلة، وهذا هو الأقرب إلى النطق العربي.

جنس الاسم في اللغات السامية

من القواعد المُقررة في العربية أنَّ الاسم يُقسم من حيث الجنس إلى قسمين: مُذكر ومؤنث، وهي قاعدة مُقررة في اللغات السامية الأخرى، ولا يُعرف خروج على هذه القاعدة المطردة من أي من لغات الأسرة السامية، وحتى ذلك القسم الثالث: «الخُنثى» «الذي لا يَمْلِكُ لذكر ولا أنثى»^(١)، تعاملت معه اللغة مُعاملة المذكر أو المؤنث، ولم تخصّه بمعاملة تميّزه. لقد ألحقت العربية بكلمة «خُنثى» الألف المقصورة، وهي من علامات التأنيث، وجمع على «خُنثاء»، كما تجمع خُبلى على خبالى. وقيل: رَجُلٌ خُنْثٌ، على وزن: لُكْع، وامرأة خُنْثٌ، على وزن: لُكَاع. وهكذا نجد أنَّ هذا القسم الذي تفرّد في الطبيعة والمعنى، وتميّز، لم يتميّز من الناحية اللغوية الشكلية بمعاملة تخصّه من حيث هو جنس ثالث مستقل.

وهكذا عوملت سائر الموجودات: فهي إمّا مؤنثة وإن لم يكن لها مُذكر من جنسها، أو مُذكّرة وإن لم يكن لها مؤنث من جنسها. وهذا ما عُرف بالتذكير المجازي كالقَمَر والحَجَر، أو مؤنثة تأنيثاً مجازياً كالشَّمْس والعين. وهذا ما سلكته اللغات السامية بعامة مع الموجودات الكونية، فهي إمّا مُذكّرة أو مؤنثة، وقد تُعامل اللفظة الواحدة معاملة المذكر حيناً ومعاملة المؤنث حيناً آخر، كالطريق والسيبل.. ولكن هذا لا يخرجها عن قاعدة المذكر والمؤنث.

وقد يخيّل للمرء الذي يفكر تفكيراً محلياً داخل إطار إحدى اللغات السامية أو ضمن إطارها عموماً أنَّ هذه هي الحال في اللغات الأخرى، ولكن الأمر ليس كذلك، فمما يقرّره علماء اللغة أن بعض اللغات البدائية تُنوع أجناس الموجودات الكونية تنوعاً طريفاً، ويربطون ذلك التنوع بمعتقدات تلك الشعوب وتأمّلاتها الخرافية^(٢).

(١) ابن منظور: (خنث).

(٢) انظر بروكلمان (١٩١٦) ص ١٠٦ - ١٠٧.

ولنأخذ مثلاً من اللغات الهندية الأوروبية لنرى كيف تتعامل هذه اللغات مع موجودات الكون من زاوية الجنس.

فالألمانية تُقسم الأشياء إلى مذكّر، ومؤنث، ومحايد. أمّا المذكر على الحقيقة — أي: الذي له مؤنث من جنسه — فهو في الغالب مذكر في جنسه اللغوي، وله أداة تميّزه في حال الرفع هي: der وكذلك المؤنث على الحقيقة، فإنّه مؤنث من حيث التعامل اللغوي، وأدواته المميّزة هي: die وثمّة جنس ثالث، وهو ما ليس بمذكر ولا مؤنث من حيث التعامل اللغوي، وله أداة خاصّة به، هي: das ولا نريد أن نخوض في ما لهذه القاعدة من مُلابسات ليس هذا مقامها. فحسبنا أن نرى كيف أنّ اللغة الألمانية لا تكتفي بتعاملها مع الأسماء من خلال قسمتها إلى مذكر ومؤنث، فتمّة جنس آخر، هو المحايد Neutral. وعلى هذا فإنّ كلمة: Mann «رجل» مذكّرة،

وكلمة: Frau «امرأة» مؤنثة. وأمّا المحايد فنحو Kind «طفل» أو «طفلة». ولكن هذه القاعدة لم تبق على حالها مع تطوّر الزمن، حتّى غدا التفريق بين المذكر والمؤنث والمحايد لا يعتمد على الواقع الطبيعي لهذه الأشياء بمقدار ما يعتمد على علامات لغويّة بحسب لا علاقة لها بجنس الشيء في الطبيعة. وعلى هذا فإنّ كلمة Hund «كلب» هي مذكّرة، وأمّا Pferd «حصان» فهي محايدة، و Taube «حمامة» فمؤنثة. والعُهد في مميّز هذه عن تلك مناطها علامات لغويّة تعود إلى نوع الأداة المستخدمة معها (der للمذكر، و die للمؤنث، و das للمحايد) أو إلى اللواحق التي تلحق بالصفات، أو أنواع الضمائر التي استخدمت معها (er «هو» للمذكر، sie «هي» للمؤنث، es للمحايد).

أمّا الإنجليزية فقسّمتُ الأشياء فيها على ميزان آخر، فهي إمّا مذكّرة عاقلة، أو مؤنثة عاقلة، أو غير عاقلة بغض النظر عن جنسها في الطبيعة، ومما يجدر ذكره أنّ الإنجليزية ألغت الفروق الشكلية بين ما هو مذكر ومؤنث، وغير عاقل ولم يعد باقياً منها سوى الضمائر: he, she, it.

واعتبار العقل وعدمُ اعتباره ما كان ليغيب عن العقلية العربية لغوياً فقد عاملت العربية جمع غير العاقل معاملة المفرد المؤنث، فيقال: هذه جمال، وتلك جبال، إلى جانب: هؤلاء وأولئك على نحو ما ورد في القرآن الكريم ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١)

أما اللغة الفارسية فهي لا تضع أي علامة شكلية لغوية للتمييز بين المؤنث والمذكر. فهي لا تميز في الضمائر والصفات بينهما، وتترك للسياق وحده أن يُحدد المقصود. فالضمير: «تو» يعني: «هو» أو «هي». و «شما» تعني: أنتم وأنتم، وأنتن. وكلمة «سفيد» معناها: أبيض أو بيضاء، وكلمة «فاضل» معناها: فاضل أو فاضلة. وحتى في الأسماء فهي كثيراً ما تُطلق الكلمة الواحدة لتعني بها المذكر والمؤنث، دون أن تحتاج بالضرورة إلى كلمة «نر» ومعناها «ذكر» أو كلمة «ماده» ومعناها «أنثى»^(٢). فكلمة «شير» معناها «أسد» أو «لبؤة» وكلمة «گاو» تعني «بقرة» أو «ثور».

وهكذا فإن الأسس التي بُني عليها هذا التقسيم تختلف من لغة إلى أخرى، وفقاً لتصوّرات الشعوب — عبر تاريخ كل منها — لموجودات هذا الكون. بل إن بعض اللغات لا يأخذ بمفهوم «الجنس» باعتباره قسماً من أقسام النحو، ويحلّون محلّه مفاهيم أخرى، مثل الطبقة أو ترتيب الأشياء بحسب أهميّتها^(٣)، وعلى أسس مختلفة تماماً، كما — في لغات البانتو وبعض اللغات الأصلية في القارة الأمريكية^(٤).

(١) سورة الإسراء، الآية ١٧.

(٢) قد تفعل العربية نحو هذا في الأسماء التي تقع على المذكر والمؤنث دون مِيز فعندئذ يقولون: عقرب ذكر وعقرب أنثى وضع ذكر وضع أنثى. انظر أبا بكر الأتباري ص ٩٣.

(٣) انظر: ماريو باي في كتابه: لغات البشر ص ٣١.

(٤) انظر بروكلمان (١٩٠٨) ٤٠٤/١.

فاللغات السامية لم تخرج عن قاعدة تحصر فيها الأشياء في نوعين: مذكّر ومؤنث، وهذه القاعدة مع قواعد أخرى كثيرة تؤكد أنّ وجه الشبه بين لغات هذه الأسرة أوسع من ذاك الذي يجمع بين مجموعة اللغات الهندية الأوروبية. ويرى بعض الباحثين أن الجنس في اللغات السامية ربما كان ذات يوم يتجاوز حصره في المذكر والمؤنث، فيرى كلّ من بروكلمان وفيشر أن هذا التقسيم قد تمّ في مرحلة متأخرة نسبياً، ويتخيل بروكلمان^(١) أن اللغات السامية ربما كانت ذات يوم على نحو ما هي الحال في لغات البانتو وبعض اللغات الأصلية في أمريكا، أي من اللغات التي لم تعرف هذا التقسيم الذي يعتمد على سلك الموجودات في منظومتين متوازيتين: المذكر والمؤنث.

(١) انظر بروكلمان (١٩٠٨) ٤٠٤/١.

المؤنث الحقيقي والمؤنث اللغوي

قد يلتقي غير علم من العلوم على إحدى الألفاظ اللغوية، ولكن مدلول تلك الكلمة يختلف اصطلاحاً من علم لآخر، ولنأخذ مثلاً على ذلك مصطلح «فاعل» فهو مرادف للمجرم في «القانون»، وهو مرادف للعامل في مجال الزراعة والعمل الجُرْفِي، وهو في «اللغة» غير هذا وذاك. ولذا كان لزاماً أن يُراعى ما اصطُلع عليه في كل فن من هذه الفنون، وإلا حصل اللبس بل التناقض أحياناً؛ ومن ذلك ما يقع فيه بعض التلاميذ من خلط بين مفهوم «الفاعل» و «المفعول به» لغة واصطلاحاً في نحو: مات الرجلُ أو انكسر الزجاج.. ثم يتساءل: كيف يكون الرجل أو الزجاج فاعلاً وهو المفعول به في المعنى؟ إنه لم يستوعب بُعد الفرق بين المدلول الاصطلاحي للفاعل أو المفعول ومدلول الكلمة اللغوي قبل الاصطلاح بوصفها مفردة من مفردات اللغة.

أما المصطلح اللغوي فهو، وإن كان المدلول المعنوي المعجمي قد يلمس فيه على نحو أو آخر، إلا أن المدلول اللغوي الشكلي المحض قد يؤخذ في الاعتبار أكثر من سواه، وعلى هذا صح أن تُعتبر «الرجل» أو «الزجاج» فاعلاً لل فعل «مات» أو «انكسر».

لذا كان لزاماً أن يميّز بين مدلول «المؤنث» من الناحية الاصطلاحية وفقاً لما يتطلبه علم اللغة، والمفهوم المعجمي أو التشريحي. فهذه المفاهيم، وإن كانت تلتقي بمقدار، إلا أنها تفتقر بمقدار قد يقل أو يزيد عن مقدار ما التقت عليه، بل قد ينقلب إلى الضد، فيصبح المؤنث في المصطلح اللغوي نحو معاوية، وطلحة، مذكراً في الحقيقة والمعنى.

أما المؤنث على الحقيقة فهو كما قال أبو البركات بن الأنباري «ما كان له فرج الأنثى»^(١). وأما المؤنث اللغوي — اصطلاحاً — فهو ما دلّت عليه علامة من علامات التأنيث، سواء أظهرت على الكلمة نفسها نحو: فاطمة وليلى وصحراء، أم ظهرت في السياق، دون الكلمة نفسها نحو: قامت هند، وهذه دَعْدُ، أو فيهما معاً، نحو: أنتِ ليلي، أو في أحدهما دون الآخر، نحو: هذا معاوية، فإن «هذا» للمذكر لأن المشار إليه مذكر على الحقيقة، وهو — أي: معاوية — مؤنث من الناحية اللغوية الشكلية.

إنّ تفريقاً كهذا بين المذكر والمؤنث، وبين المؤنث في الاصطلاح والمؤنث على الحقيقة، مع أخذ السياق بعين الاعتبار، من شأنه أن يساعد في ضبط قواعد هذا الباب لتجري على قياس مطرد، فلا تظل على ما وصفها به ابن التّستري بقوله «ليس يجري أمرُ المذكر والمؤنث على قياس مطرد ولا لهما باب يحصرهما كما يدعي بعض الناس»^(٢) وقال في موطن آخر «ووصفوا أنّ المذكر: هو الذي ليس فيه شيء من هذه العلامات، مثل زيد وسعيد، وقد يوجد على هذه الصورة كثير من المؤنث مثل هَند ودَعْد...»^(٣)

(١) أبو البركات بن الأنباري ص ٦٣، وانظر ابن يعيش ٩١/٥

(٢) ابن التستري ص ٤٧.

(٣) ابن التستري ص ٤٩.

أصل التذكير والتأنيث لغوياً

يبدو من كثير من الكلمات العربيّة، وكذا الساميّة الأخرى، بله غير الساميّة أيضاً أنّ التفريق بين المؤنث والمذكر الحقيقيين فيها لم يكن من خلال هذه العلامات التي عُرفت فيما بعد بعلامات التأنيث. فإن الاختلاف بين المؤنث الحقيقي والمذكر الحقيقي لم يتم عن طريق العلامة اللغويّة كما في «كريم» و«كريمة»، بل تمّ عن طريق اختلاف اللفظ، كما في «أب» و«أم». وهذا ما نجده في اللغات الساميّة الأخرى. انظر مثلاً لذلك بعض الكلمات الساميّة المشتركة، وهي:

العربية الفصحى	الأكدية	العبريّة	الآرامية	العربيّة الجنوبيّة والحبشية
أمّ	ummu	ēṃ	emmā	emm
أب	abu	āḇ	abā	ab
ذكر	zikaru	zāḥār	dehrā	gkr
أنثى	aššaru	iššā	attā	anest

وقارن ذلك ببعض الكلمات المشتركة بين بعض اللغات الهندية الأوروبية، وهي:

الألمانية	الإنجليزية	الفارسية	المعنى بالعربية
mutter	Mother	مادر	أم
Vater	Father	پدر	أب
Bruder	brother	برادر	أخ

إنّها كالسامية لا تعتمد على العلامة في التفريق بين المذكر والمؤنث الحقيقيين. وقد ظلّت كثير من الأسماء المتمكّنة الحقيقيّة التذكير متميّزة بمادتها اللفظيّة عن قبيلتها المؤنثة^(١). ومن أمثلة ذلك في العربية: الأب، والجمل، والدّكر، والكبش..

(١) يفهم من قول ابن هشام في أوضح المسالك ٢٨٦/٤ «وقد أنثوا أسماء كثيرة بناء مقدرة» أن الأصل في مثل هذه الكلمات أن تكون منتهية بناء التأنيث وهذا يخالف ما ذهبنا إليه من أن التأنيث لم يكن عماده في الأصل العلامة اللفويّة، بل عن طريق المخالفة اللفظيّة بين مادة المذكر والمؤنث كما في: «أم» و «أب».

التأنيث المجازي والتذكير المجازي

من الراجع أنّ حَمَلَ الأشياء على المذكر أو المؤنث مجازياً أمر مَنُوط بتصوّرات الشعوب لهذه الأشياء، فما اقترب في شكله أو صفته أو قرينة تربطه بالأنثى الطبيعيّة جعلوه مؤنثاً، وإن اقترب من المذكر في أذهانهم عاملوه معاملة المذكر الحقيقي.

ولمّا كانت أذواق الناس تتفاوت كما تتفاوت عاداتهم وتمايز تقاليدهم وأعرافهم، رأينا أنّ اللغات تختلف باختلاف الأمم في اختلافها على تذكير الأشياء أو تأنيثها مجازياً. فقد تؤنث الألمانية ما تذكره غيرها، وقد تؤنث العربية ما تذكره هاتان اللغتان. وقد تختلف الأعراف في اللغة الواحدة، فنجد ألفاظاً يجوز فيها التذكير والتأنيث.

ومن أمثلة ذلك في العربيّة أن «الريح» تؤنث كما في قوله تعالى ﴿ولسليمان الريح عاصفة﴾^(١) وتذكر كما في قوله تعالى: ﴿ريح عاصف﴾^(٢).

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨١.

(٢) سورة يونس، الآية ٢٢.

وفيما يأتي طائفة من الأسماء السريانية التي جاز فيها التذكير والتأنيث:

الكلمة	معناها	الكلمة	معناها	الكلمة	معناها
ديرا ^(١)	دير	شمايا	سماء	شمشنا	شمس
سهر	شهر	شاقا	ساق	شيثلا	سنبلة
حوطرا	عصا	روحا	روح	زينا	زمن
حيكا	حنك	بعيرا	قطيع	حچلا	حجل

وقد حصل مثل هذا في العبرية والآرامية كما سنبين. ويلاحظ أن كثيراً من الألفاظ التي أجز فيها التذكير والتأنيث في اللغة السامية الواحدة قد أجز فيها التذكير والتأنيث في لغة سامية أخرى، ومن ذلك مثلاً أن كلمات نحو: روح، وطريق، وريح قد أجز فيها التذكير والتأنيث في كل من العبرية والعربية والسريانية.

(١) تقابل الألف التي تنتهي بها هذه الكلمة السريانية ال التعريف بالعربية.

ولعل هذه الظاهرة تشير إلى ما يأتي:

أولاً: إنّ التقاء هذه اللغات على جواز التذكير والتأنيث ربما كان عائداً إلى مرحلة زمنية بعيدة قبل أن تنفصل هذه اللغات انفصاًلاً يَبِيناً. فلما انفصلت كل لغة عن الأخرى حملت كل منها قدراً من الإرث اللغوي المشترك، يتضمن فيما يتضمن هذه الألفاظ التي أجزى فيها التذكير والتأنيث.

ثانياً: إن جواز تذكير بعض الألفاظ أو تأنيثها في اللغة الواحدة قد يتأثّر من اختلاف القبائل الناطقة بهذه اللغة في اصطلاحها على الأشياء مذكرةً أو مؤنثة، ومع الزمن اختلط على الناس التذكير والتأنيث في هذه الألفاظ فجاز فيها الوجهان. ومن أمثلة ذلك ما يحصل في وقتنا هذا إزاء الألفاظ المعربة عن لغات أجنبية كالراديو والتلفاز والتلفون.. فبعضنا يذكرها ومتاً من يؤنثها، ومع الزمن قد يختلط الأمر، فيجوز الوجهان على الخيار. وإلا فكيف يكون لنا أن نفسر شواهد كثيرة تؤنث فيها الكلمة أحياناً وتذكر أحياناً، ومن ذلك المصدر، فهو وإن شاع فيه التذكير، إلّا أنه ورد مؤنثاً في نحو: أوجعني ضربك وأوجعتني ضربك، والقتل في سبيل الله مُمصمصة، وسائل بني أسد ما هذه الصوت^(١)

ثالثاً: ربما أُملي هذا الاتفاق ما أُشربت به هذه الشعوب من أعراف لغوية ظلّت تسري بينهم حتى بعد استقلال كل لغة عن الأخرى، بل إنّ كثيراً من هذه العادات اللغوية ما تزال قابلة للاطّراد إلى يومنا هذا، ومن ذلك — مثلاً — أن أسماء المدن يَغلب أن تكون مؤنثة في اللغات السامية، فيقال: هذه دمشق وهذه طرابلس.. الخ وهكذا تسلك هذه اللغات بعد دهرٍ طويل من انفصالها القاعدة نفسها مع المدن الجديدة؛ فيقال هذه نيويورك، ولندن، وباريس.. بوصفها أسماء مؤنثة جرياً على القاعدة نفسها: وهي تأنيث أسماء المدن.

(١) انظر ابن جني (خصائص) ٤١١/٢ — ٤١٨، وقد وردت تلك الشواهد وغيرها لدى «فيشر» (١٩٠٦) ص ٨٤١.

فئات أسماء مجازية اتفقت بعض اللغات السامية على تأنيثها أو تذكيرها

١ — فئات تدلّ على المذكر.

وذلك إذا دلّ الاسم — غالباً — على شُعْب كالعرب والفرس والروم، وإذا دلّ الاسم — غالباً — على جَبَل، أو نهر، أو بحر. ولعلّ التذكير عائد إلى إضمار كلمة «شعب» (= «عم» في العبريّة والآرامية)، و «جَبَل» (= «هار» في العبريّة = «طورا» في الآرامية)، و «نهر» (= «نهار» في العبريّة = «نهر» في الآرامية)، و «بحر» (= «يام» في العبريّة = «يَمًا» في الآرامية^(١)). وتدلّ هذه الكلمات على مذكر.

٢ — فئات تدلّ على المؤنث؛ ومن ذلك:

أ — إذا دلّ الاسم على أعضاء الجسم المزدوجة كالعين والأذن واليد، أو المتعددة كالسن.

ب — أو إذا دلّ الاسم على مدينة كالقدس، وحلب، وبغداد.
ج — وثمة أسماء عديدة كان تأنيثها سماعياً في كثير من اللغات السامية كالعربيّة والعبريّة والسريانية، ومن ذلك الأسماء الآتية: الكاس، والعصفور، واللسان، والنار، والبئر، والحجر، والأرض...

أمّا ما اتفقت فيه اللغات السامية قياسياً، أي من خلال علامات التأنيث المعتادة في هذه اللغات فهو أوسع بكثير من أن يسمح به المقام.

(١) واليم في العبريّة هو البحر.

دلالة الصفات المؤنثة بغير علامة تأنيث

وذلك نحو: جريح، ومنحار، وصبور، ومريض، وحامل، وعافر، ومغشم، ومطفل، ومغفل.. ولعل هذا راجع إلى مرحلة قديمة من عمر اللغة لم تكن فيها علامات التأنيث قد استخدمت بعد، فقد كان المؤنث لغوياً يعامل بما يعامل به المذكر. ومن المعروف أن علامات التأنيث في الصفات أكثر منها في الأسماء الخالصة في الاسمية كفرس، وعين، ونفس. وقد أشار ابن هشام لذلك بقوله: «الغالب في التاء أن تكون لفصل صفة المؤنث من صفة المذكر»^(١) ولعل في هذا إشارة إلى أن اللغة العربية — وكذا اللغات السامية — تحفل بالمذكر أكثر من المؤنث، فكانت الغلبة لصيغة التذكير في الأسماء والصفات. فالتأنيث فرع التذكير — كما قال ابن يعيش^(٢) — ولذا احتاج المؤنث إلى علامة ولعلها ظاهرة إنسانية عامة أن يحفل بالذكور أكثر من الإناث. فالألماني يقول: man sagt (ومعناها: يُقال، أو قال أحد ما) وكلمة (man) مأخوذة من كلمة mann التي هي «رجل» وهي في مقام أداة للبناء للمجهول. والصفات حين تكون خبراً في كثير من اللغات تظل في حالة التذكير: فيقال مثلاً في ما ترجمته: «المرأة جيدة»:

— بالإنجليزية: The woman is good.

— بالألمانية: Die Frau ist gut.

— وبالفارسية: زن خوب است.

فالكلمات good و gut و «خوب» لم تلحق بأي منها علامة تأنيث، بل ظلت على حالها التي يُخبر بها عن المذكر، وحتى في غير الإخيار، أي: حين تكون الكلمة صفة، فإنها تبقى مع المؤنث على حالها مع المذكر في الفارسية والإنجليزية، فيقال بالإنجليزية:

The good man «الرجل الطيب»

The good woman «المرأة الطيبة»

(١) ابن هشام (أوضح.. ٢٨٧/٤).

(٢) ابن يعيش ٨٨/٥.

مردِ فاضلي «الرجل الفاضل»

مادرِ فاضلي «الأم الفاضلة»

أما الألمانية فقد مالت إلى التخصيص في هذه الحال فميّزت بين المذكر والمؤنث،

فقيل: guter Mann «رجل طيب» و gute Frau «امرأة طيبة» وفي «المحايد» gutes Kind «طفل طيب» (= طفلة طيبة).

ويدل هذا المثال الهندي الأوروبي على كيفية التدرج الذي سارت فيه هذه اللغات من التعميم الذي يستوي فيه المذكر والمؤنث إلى التخصيص — في الألمانية — الذي يُفصل فيه بين المذكر والمؤنث. أما اللغات السامية فيبدو أنها جميعاً قد تجاوزت مرحلة التعميم إلى التخصيص، وذلك منذ زمن بعيد، ولم يبق من آثار مرحلة التعميم سوى آثار قليلة كتلك الألفاظ التي ما زالت تحتفظ بها العربية شاهداً من شواهد قديم هذه اللغة، أعني ما جاء مؤنثاً بغير علامة تأنيث من الصفات نحو: امرأة حامل، وامرأة صبور... وما شاكل ذلك.

الميل إلى التخصيص في اللغات السامية من خلال تحديد الجنس

ويُظهِرُ الميلُ إلى التخصيص في اللغات السامية — فيما نحن بصددِه من الحديث عن ظاهرة التذكير والتأنيث — ما نجده من ميلٍ إلى الفصل الواضح بين المذكر والمؤنث. فهي قد بَسَطَت الأمر فكانت حاسمة حين حصرته في نوعين فحسب: المذكر والمؤنث، وكانت حاسمة في أطراد ظاهرة التذكير والتأنيث، وهذا ما نجده في صيغ الأفعال والصفات والضمائر. ولنضرب مثلاً على ذلك بما يقابل الضمير you في الإنجليزية (= du بالألمانية و«تو» بالفارسية ومعناه في كل هذه اللغات أنت أو أنتِ على حدٍّ سواء دون تفريق بين المذكر والمؤنث). وانظر فيما يأتي إلى صورة هذا الضمير في اللغات السامية الآتية:

	العربية	الحبشية	الأكدية	العبرية	الآرامية
المخاطب	أَنْتَ	أَنْتَ	أَنْتَ	أَنْتָא	أَنْتَ
المخاطبة	أَنْتِ	أَنْتِ	أَنْتِ	أَنْتِ (أَنْتِ)	أَنْتِ

ومن هذا الجدول يتبيّن التفريق الواضح بين المذكر والمؤنث مقارنةً بتلك اللغات التي تنتمي إلى أسرة اللغات الهندية الأوروبية. ولو اتّسعت المقارنة لتشمل بقية الضمائر في الأسرتين السامية والأوروبية لوجدت أنّ الأمر لا يكاد يختلف إلّا في حالات قليلة (كتمييز اللغات الهندية الأوروبية بين المفرد الغائب والمفردة الغائبة) أمّا اللغات السامية فتُصيرُ على التخصيص في أغلب الأحوال (إلّا في ضمير الغائبين: هما، والمتكلم: أنا، والمتكلمين: نحن، فكل منها يصلح للمذكر والمؤنث، ولكنّ

بعض اللهجات العربية أخذت تميل إلى التخصيص، فيقول الرجل: أنا وتقول المرأة: أني، قياساً على أنت وأنت^(١).

وتُخصّص اللغات السامية في صيغ الأفعال، فتتميّز المذكر من المؤنث على نحو ما سنبيّن عند الحديث عن ظاهرة التأنيث والتذكير في الأفعال.

وبصرف النظر عن تلك الفئة، من الصفات التي لم تظهر عليها علامات التأنيث — نحو: مُرضع، وحامل، وعافر، وهي قليلة نسبياً — فإنّ أطراد ظاهرة التأنيث — فيما يبدو — قد جاء في مرحلة تالية لأطراده في الأسماء؛ يستدل على ذلك من أنّ صفات جميع الأسماء المتمكنة المؤنثة تؤنّث بعلامات التأنيث، سواء في هذا أظهرت عليها علامات التأنيث أم لم تظهر، فيقال: أرض خصبة، ونفس مطمئنة وفاطمة مؤمنة. ومن الأسماء المؤنثة في الأكادية بدون علامة تأنيث كلمة *ummānum* وتعني «جَيْش»، و *mātum* وتعني «بلد» فلو وصفت لقلت: *ummānum nakratum* «الجيش المعادي»، و: *mātum rapāstum* «البلاد الواسعة» فالاسمان — هنا — اللذان جاءا مؤنثين بدون علامة تأنيث جاءت صفتاهما مؤنثتين بعلامة تأنيث كما هي الحال السابقة في العربية. والأرض في السريانية مؤنثة بدون علامة تأنيث. فلو وصفتها لقلت «أُرْعَارَيتا»^(٢) *ar-ē-rabiṭā*. وتقول في ترجمة «أرض واسعة» إلى العبرية: «إِرس رَحَبَا»^(٣) *erēs reḥabā*.

(١) عرفت العربية مثل هذا القياس في الميز بين المذكر والمؤنث، ومن ذلك ما حصل في «ذا»، نحو: ذا أخوك، و «ذي» نحو: ذي أختك، على نحو ما هي الحال في أنت وأنت. انظر ابن منظور (ذا) والجوهري (ذا).

(٢) أصل هذه الكلمة *nakr*، ويقابلها في العربية النكرة أو المنكر، أي: المجهول وتعني المعادي. ولا تخفى الصلة بين العداء والإنكار، حتى قيل الإنسان عدو لما يجهل أي: لما ينكر. وأما *at* فهي علامة التأنيث التي يقابلها في العربية التاء التي فتح ما قبلها نحو: كريمة وأما *um* فيقابلها في العربية *un* أو التوين.

(٣) تعني أُرعا: الأرض، أما الألف التي في آخر الكلمة فهي تقابل «ال التعريف» في العربية، وأما العين في السريانية فيقابلها — وفقاً لقانون المقابلات الصوتية بين اللغتين — حرف الضاد وأما كلمة «ربتا» *rabiṭā* فيقابلها في العربية ربا يربو بمعنى ازداد واتسع، ومنها: الربا وهو الزيادة. وأما التاء فهي للتأنيث، والألف: أداة التعريف، وأصلها هاء وألف.

(٤) تقابل كلمة «إرس» العربية كلمة أرض العربية — فالضاد تقابلها الضاد — وتقابل: «رحبا» العربية: «رحبة» في العربية.

وحتى الصفات التي وردت مؤنثة بدون علامة تأنيث فقد جاءت أيضاً بعلامة تأنيث أحياناً؛ فكلمة «مُرْضِع» صفة اختُصَّت بها الإناث، وهي بدون علامة تأنيث، ولكنها وردت أيضاً بعلامة تأنيث في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُل مُرْضِعَةٌ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾^(١)، وقيل إلى جانب: امرأة طالق: امرأة طالقة، ومن ذلك قول الأعشى:

أجارتنا بيني فأنتك طالقة كذاك أمور الناس غادر وطارقة

ومن ذلك أيضاً أن يقال في المرأة حبيب وحبّية^(٢) وواله ووالهة^(٣) إلى غير ذلك مما يضيق المقام عن حصره.

ولعل الرغبة في أن تطرد القاعدة هي التي جعلت الاستعمال اللغوي يميل إلى إدخال علامة التانيث على الألفاظ المؤنثة تأنيثاً سماعياً، أي المؤنثة بدون علامة تأنيث.

(١) سورة الحج: الآية ٢.

(٢) انظر ابن منظور (حبيب).

(٣) انظر ابن منظور (وله).

التأنيث القياسي

يُعد القياس من أهم الوسائل التي تُساعد المستعمل اللغوي في ائتلاف اللغة، والأخذ بناصيتها، وهو من السبل المنطقية التي يحاول المرء من خلالها الدخول إلى الظاهرة اللغوية. على أن القياس لا يعدو أن يكون مفتاحاً من مفاتيح هذه الظاهرة، تَتَفَتَّحُ به أبواب وتستعصي أخرى، وهذا راجع إلى أن الظاهرة اللغوية، رغم أنها ثمرة من ثمار العقل؛ إلا أنها لا تخضع دائماً للتحليل العقلي أو المنطقي. فما يُعدُّ منطقياً في لغة ما نجد ضده في لغة أخرى، بل قد تجد ضده في اللغة ذاتها.

فالقياس من مستلزمات التفكير اللغوي، بوصفه وسيلة هامة في التعامل مع اللغة. ولا بد لنا من إظهار أهميته في ظاهرة المذكر والمؤنث.

ومن المعالم القياسية التي يُتَهَدَّى بها في التميز بين المذكر والمؤنث ما عُرف بعلامات التأنيث، وهي كما أوردت كتب اللغة: «للمؤنث علامات ثلاث»^(١) الهاء كما في قائمة، والألف المدودة كما في حمراء والألف المقصورة كما في حُبلى. ولكن هذه العلامات الثلاث لا تكفي وحدها في الميز بين المذكر والمؤنث. فالعربية من أكثر اللغات السامية ميلاً إلى التدقيق والتخصيص، وقد أدرك أبو بكر الأنباري تعدد علامات التأنيث في حديثه عن المذكر المؤنث، فلم يَفْتَصِرْ على هذه الثلاث، بل تجاوزها إلى جُلِّ ما من شأنه أن يميز المذكر من المؤنث، فَذَكَرَ خمس عشرة علامة قال: «اعلم أن للمؤنث خمس عشرة علامة، ثمانٍ منها في الأسماء وأربع في الأفعال، وثلاث في الأدوات»^(٢)

(١) الفراء ص ٥٧، وانظر أبا البركات بن الأنباري ص ٦٣، والستري ص ٤٧.

(٢) أبو بكر الأنباري ص ١٦٦.

فأما اللَّاتِي في الأسماء فالألف المقصورة (ليلي)، والألف الممدودة (حمراء)، والتاء (أخت)، والهاء (طلحة) والنون (هُنّ) والكسرة (أَنْتِ) والياء (هذي) والألف والتاء في الجمع (مسلمات).

وأما اللَّاتِي في الأفعال فالتاء (قامت)، والياء (تضربين)، والكسرة (قمت) والنون (قمن).

وأما اللَّاتِي في الأدوات فالتاء (رُبِّتَ)، والهاء (لات = لاه)، والهاء والألف (إنها).

وقد فرقت العرب بين المذكر والمؤنث بجعل علامة خاصة بالمذكر في بعض الكلمات فيقولون في تذكير، عَقْرَبَ عُقْرُبَانٍ وفي تذكير ثُعْلَبَ ثُعْلُبَانٍ. وقد نصَّ القدماء على أن هذه الألف والنون لميز المذكر من المؤنث. ولم يفت ابن عصفور أن يقرن بينها وبين تاء التأنيث «فَعَدَّ الألف والنون تجريان مجرى تاء التأنيث، ولذلك إنما يُصَغَّرُ من الاسم، الذي يكونان فيه، الصدرُ كما أنه لا يُصَغَّرُ من الاسم الذي فيه تاء التأنيث إلا صدره»^(١).

ولا نعلم أن هذه الطريقة في التذكير قد استعملت في غير العربية من أخواتها الساميات. فالعربية تُمَهِّرُ في التوسعة على ذاتها بطرائق جديدة. فكلمة ثعلب أو عقرب وما شاكلها تدل على الجنس مذكراً ومؤنثاً على حدّ سواء. ولما استدعت الحاجة إلى إظهار الذكور دون الإناث جيء بالألف والنون، على نحو ما حصل حين استدعت الحاجة لإظهار الإناث فجيء بعلامات التأنيث.

(١) ابن عصفور ١٦٣/١ هذا عن الألف والنون التي تلحق بالأسماء، والكلام نفسه يقال في الألف والنون اللتين تلحقان بالصفات: نحو: عطشان وغضبان لأنهما كما قال ابن جني في اللمع ص ٢٥٥ ضارعا ألف التأنيث في نحو حمراء وصفراء.

وقفة تأصيلية على بعض علامات التانيث

ونحاول فيما يأتي أن نقف وقفة تأصيلية مقارنة على بعض هذه العلامات:

أولاً: التاء التي فتح ما قبلها:

وهي تدخل على الأسماء المعربة غالباً، نحو: فاطمة، وكريمة، وجميلة، وقد تدخل على المبنيات كما في: مَنَّة^(١).

ويشترط النحاة أن يكون ما قبل هذه التاء مفتوحاً، قال ابن يعيش «تاء التانيث لا تكون في الأسماء المفردة إلا وقبلها مفتوح، نحو: حمزة، وطلحة...»^(٢)، وقال السيرافي: «والتاء الزائدة للتانيث هي التي يلزم ما قبلها الفتحة ويوقف عليها بالهاء، كقولنا: دجاجة وما أشبه ذلك»^(٣). ولذا رفض ابن منظور أن تكون التاء في «بنت» للتانيث، وذلك لسكون ما قبلها^(٤).

ونجد التاء التي فُتح ما قبلها علامة على التانيث في غير العريّة من السّاميات، فكلمة dann - um في الآكادية تعني «قوي» وهي مذكّر (أصل الكلمة dann وأما um فهي ضمة وميم، وهما التّميم الذي يقابله التنوين في العريّة) أمّا تانيث هذه الكلمة فقد تمّ بإضافة فتحة وتاء (at) على الكلمة المذكورة فأصبحت الكلمة (dann - at - um) dannatum أي: قويّة.

ومن علامات التانيث في العريّة أن تنتهي الكلمة بالتاء التي فُتح ما قبلها، نحو شِنَات senāt ومعناها: سِنَة أو نوم، أو بالهاء التي فُتح ما قبلها، نحو: يَلْدَاه (٥) yaldāh ومعناها: بنت.

(١) من «مَن» الاستفهامية، انظر ابن منظور (منن) وانظر ص ٣٩٩ من هذا البحث.

ابن يعيش ٥٥/١.

(٣) سيويه ٢٢٢/٣.

(٤) انظر ابن منظور (بنو).

(٥) المقابل الحرفي لهذه الكلمة بالعريّة: وَلْدَة باعتبارها مذكّر: ولد، ويقابل الياء في العريّة الواو في العربية. ولم يجر الاستعمال بهذا المقابل في العريّة.

ويبدو أنَّ الفتحة التي تسبق تاء التانيث جِيءَ بها في الأصل لغرض صوتي سامي، وهو التخلص من توالي السواكن: فلو وُقف على كثير من الكلمات المؤنثة دون أن تحرك بحركة الإعراب لقييل في نحو: كَلَبٌ: كَلَبْتُ، فالتقى أكثر من ساكنين، ثم جِيءَ بالفتحة بين الباء والتاء لكسر حِدَّة الثقل المترتب على توالي السواكن، فقييل كَلَبْتُ (= كَلَبَ) وهذا ما حصل في الأكادية حيث أصبحت كلمة: كَلَب Kalb - um حين تانيثها كَلَبْتُ (kalb - at - um).

ومما يؤكد أن الفتحة طارئة تَبَيَّنُ موقعها في هذه اللغات، فالعربية مثلاً تَضَعُها — كما رأينا — قبل التاء، وكذا فعلت الأكادية إلا أن الأكادية حين يُوْتث المذكر المنتهى بساكنين فيها، نحو: «نَكْرُ» nakr (علواني)، و «صِيْحْرُ» seḥr (أي: صغير) فإنها قد تتخلص من التقاء السواكن^(١) المتأثلة عند التانيث، ليس عن طريق فتحة تسبق تاء التانيث، وإنما بتحريك أحد الساكنين اللذين في المذكر، وعلى هذا تصبح كلمة nakr بعد تانيثها nakar - t - um «علوانية» بدلاً من nakr - at - um. وأما الحركة التي استُخدمت في هذه الكلمة الأكادية فهي الفتحة.

وقد يكون المتحرك الذي يُؤتى به لهذا الغرض ليس الفتحة، وإنما الكسرة كما يحصل في بعض اللهجات العربية التي تُكسر الفتحة التي تسبق تاء التانيث^(٢). وهذا ما حَصَلَ في «صِيْحْرُ seḥr» (ويقابلها في العربية: صَغِير) فإن المؤنث الأكادي من هذه الكلمة هو: صِيْحْرُ ثم Seḥert - um. ومن أمثلة ذلك في العبرية أن تختم الكلمة بما يسمّى السيجول الذي يسبق تاء التانيث، أي: بحركة مُمالة نحو الكسر، كما في إِيْمَت emet ومعناها «الحقيقة».

(١) وهي السواكن الخمسة في الساكنين اللذين انتهى بهما المذكر أصلاً، مضافاً إليهما تاء التانيث.

(٢) وقد حصل هذا في اللهجات قديماً وحديثاً. قال سيويو ١٤٠/٤ سمعت العرب يقولون: ضربت ضَرْبَةً، وأخذت أخذَه، وشبه الهاء بالألف فأمال ما قبلها كما يميل ما قبل الألف، وقال ابن عقيل في كتابه «المساعد» ٢٩٦/٤: «وإمالة الفتحة قبل هاء التانيث في الوقف مطردة»، ومثل هذا ما يحصل في بعض اللهجات الدارجة اليوم حيث يمال ما قبل تاء التانيث في: فاطمه وكريمه.

ويذكر هذا بما يحصل في بعض اللهجات العربية الحديثة حيث يقال في: أَخَذْتُ: أَخَذْتُ، فقد جِئَلْ دون التقاء الساكنين بكسرة بدلاً من الفتحة، وهو ما حصل أيضاً في الكلمات الساكنة الوسط حيث يقال في: بَنْتُ وَهِنْد: بِنْتُ، وَهِنْد، ومن الفصح أن يقال «نَهَر» و «نَهَر» بالتسكين في الأولى والفتح في الثانية.

ولم تختص هذه التاء بالدلالة على المؤنث، فقد أشار القدامى^(١) إلى تعدد وظائف التاء، فهي لفصل الواحد من الجنس، نحو «تَمْرَة» من: «تَمْر»، وزائدة كأشاعثة وزنادقة، وللمبالغة كراوية. ومن أمثلة عدم دلالتها على التأنيث في العبرية: «لَيْلَه» **לַיְלָהּ** ومعناها «ليل» وهي مذكرة وقد انتهت بالهاء، وهي من علامات التأنيث في العبرية، وأصلها تاء ثم قلبت هاء كما هي الحال في تاء التأنيث في العربية عند الوقوف عليها^(٢).

ولعل في عدم اقتصارها في الدلالة على المؤنث ما يشير الى مرحلة في عمر اللغة كانت التاء فيها عنصراً لغوياً له دلالات شتى — كما هي الحال في كلمات كثيرة مادتها اللغوية واحدة، ولكن مجالاتها اللغوية ودلالاتها المعنوية متنوعة وقد أخذت التاء مع الزمن تميل إلى التخصص وتغليب جانب الدلالة على المؤنث. ويرجح هذا الرأي أن استخدامنا المعاصر للغة أبرز — أكثر من أي زمن سابق — مقدار التخصص في وظيفة التاء، بالتخفيف من استخدام الألفاظ المذكورة التي انتهت بعلامات تأنيث نحو: فهامة وعلامة وما شاكلها.

وأكثر من هذا أن أخذ الاستعمال يميل إلى اطراد التأنيث بالتاء في بقايا الكلمات العتيقة التي جاءت مؤنثة بدون أن تكون مادتها من جنس مذكرها، فقليل في:

(١) انظر ابن هشام (أوضح...) ٢٨٨/٤.

(٢) اختلف القدماء في تاء التأنيث، قال ابن يعيش ٨٩/٥ «وفي هذه التاء مذهبان أحدهما وهو مذهب البصريين أن التاء الأصل والهاء بدل منها، والثاني وهو مذهب الكوفيين أن الهاء هي الأصل».

عجوز وعروس وفرس وأتان: عجوزة وعروسة وفرسة وأتانة، وقد أشار ابن هشام إلى هذه الظاهرة حين اعتبر التاء الداخلة على نعمة ليست للتأنيث بل لتأكيد التأنيث^(١)، أو كما قال أبو بكر الأنباري: للاستيثاق وإزالة الشك عن السامع^(٢). ولا يتنافى هذا مع ما سبق ذكره في الحديث عن التأنيث القياسي. فإن الرغبة في أطراد القاعدة يُعدّ وحده مسوّغاً لدخول تاء التأنيث على هذه الألفاظ ونحوها. بل لعل هذه الأسباب ونحوها من دواعي أطراد التأنيث القياسي.

(٢) انظر ابن هشام، (أوضح....) ٤/ ٢٨٨.

(٣) انظر أبا بكر الأنباري ص ٨٩.

ثانياً: التأنيث بالتاء من غير فتحة تسبقها

ويبدو أنها — دون فتحة تسبقها — هي الأصل. وقد عدّها الجمهور في نحو: أخت، وبنت، وهنت، ليست للتأنيث، وذهبوا إلى أنها عوض عن الواو المحذوفة، إذ أصل «بنت» مثلاً: «بَنَوَ». قال ابن منظور في تاء «بنت»: «وليست التاء فيها بعلامة تأنيث كما ظنّ من لا خيرة له بهذا اللسان^(١)، وذلك لسكون ما قبلها^(٢)». وفي حديث ابن منظور عن «أخت» قال: «وليست التاء فيها بعلامة تأنيث كما ظنّ من لا خبرة له بهذا الشأن، وذلك لسكون ما قبلها. هذا مذهب سيبويه، وهو الصحيح.. على أن سيبويه قد سمّح في بعض ألفاظه في الكتاب، فقال: هي علامة تأنيث، وإنّما ذلك تجوّز منه في اللفظ لأنّه أرسله غفلاً وقد قيّده في باب ما لا ينصرف^(٣)» وأما عبارة سيبويه الموهمة هذه فهي قوله: «وأما بنت فإنك تقول بَنَوِيّ من قِبَل أن هذه التاء التي هي للتأنيث لا تثبت في الإضافة كما لا تثبت في الجمع بالتاء^(٤)». ويتضح موقف سيبويه من هذه التاء في نحو: بنت وأخت، من قوله: «ولو كانت كاهاء لما أسكنوا الحرف الذي قبلها، فإنّما هذه التاء فيها كطاء عِفريت^(٥)».

(١) بيّن سابقاً أن أبا بكر الأنباري ص ١٦٦ كان ممن عدّوا هذه التاء للتأنيث.

(٢) ابن منظور (بنا).

(٣) ابن منظور (أخا)، وانظر ابن منظور (هنا) وسيبويه ٢٢١/٣، ٣٦١، ٣٦٣ وابن يعيش ٥٣/١.

(٤) سيبويه ٣٦٢/٣، وهو رأي الخليل بن أحمد، وانظر سيبويه ٣٦٣/٣.

(٥) سيبويه ٢٢١/٣.

ولا يخفى أنَّ الألف في (ابن) مجتلية بسبب سكون الباء في أوّل الكلمة^(١)، وعند تأنيث هذه الكلمة روعي في ذلك الأصل بدون ألف الوصل، فقيل: بنت، وكان لا بدّ من تحريك^(٢) الباء تحاشياً للبدء بساكن، عندئذ لم يلزم فتح ما قبل تاء التأنيث لجواز التقاء ساكنين في آخر الكلمة — كما مرّ ذكره. كما روعي عند تأنيث (ابن) دخول همزة الوصل فقيل: ابنة، ومن المرجح أنَّ هذه الصيغة أحدث استعمالاً من «بنت»، لأن «بنت» هي الصيغة المبنية على الأصل، وهي الصيغة الواردة في اللغات السامية. وقد فُتح ما قبل تاء التأنيث لزوماً، وإلا لَنُطقت بسكون: الباء، والنون، والتاء عند الوقف. وتوالي السواكن غير جائز، أو لالتقى ساكنان في الوسط عند الوصل، وهذا غير جائز أيضاً، فكان المخرَج من هذا كلّهُ أن يفتح ما قبل تاء التأنيث.

وهكذا يتبيّن صلة «ابنة» و «بنت» بـ «ابن» أما ابن سيدة فقد أنكر الصلة بين: ابن وبنت^(٣).

فالتاء غير المسبوقة بفتحة هي الأصل في تاء التأنيث، وقد حافظت العربية على هذه الشواهد الأثرية الدالة على ذلك. ولَنُتَظر إلى هذه الظاهرة ماثلة في «ابن» ومؤنّته «بنت» من خلال ورودها في اللغات السامية الآتية:

(١) إنَّ الألف في (ابن) كمثّلها في (است)، جيء بها تحاشياً للبدء بساكن وهي تسقط من اللغات السامية التي لا تبدؤها بساكن، فهي في العبرية شيث ^{אֵל} ومعناها «است» وفي السريانية شيث ^{ܐܬܐ} وفي الأكادية شتر، بيد أن التاء أصلية، يبدو ذلك من إلحاق الهاء بها للتأنيث، ففي العربية منه وفي العبرية «شته» وفي البونية: اشته. انظر جزيبوس ص ٨٦٦.

(٢) حُرِكت الباء هنا بالكسر، وأما في الجمع: «بنات» و «بنون» فقد حُرِكت بالفتح، وقد حدث هذا في العبرية فأصبحت ben بالكسر وهي المفرد banim بالفتح وتعني أبناء. وتعاور الفتح والكسر أمر حاصل في اللغات السامية. وعكس هذا ما جرى في «سنة» بالفتح التي أصبحت عند الجمع «سنون» مكسورة. وفي جمع قناة: «قنون» بضم القاف وكسر ها.

(٣) انظر ابن منظور (بني).

	العربية	الأكدية	السبائية	العبرية	الآرامية
المذكر	(١) بن	بن bin	بن bn	بين bēn	بَر bar ^(١)
المؤنث	بنت	بنت bint	بنت bent	بث bat ^(٢)	بَرثا bartā

ولا يخفى من هذا الجدول ما سبق من أنّ التقاء الساكنين في آخر الكلمة جائز. وقد حدث ذلك في التقاء تاء التانيث من هذا المثال بالحرف الذي قبله، من غير أن يُفصل بينهما بمتحرك.

وقد احتفظت بعض اللغات السامية بهذه الظاهرة على نطاق أوسع مما بقي من آثارها في العربية. ويوضح الجدول الآتي بعض الألفاظ السامية التي رآح فيها لفيف من اللغات السامية بين الاحتفاظ بهذه الظاهرة — أي «التانيث بالتاء غير المسبوقة بفتحة» — والتاء التي سُبقت بفتحة، كما يوضح الجدول أيضاً كيف أنّ بعض اللغات السامية لم تلجأ إلى الأداة في تانيث بعض الألفاظ.

(١) تقابل هذه الراء الآرامية ما يجري في بعض اللهجات العربية حتى الآن في جنوب الجزيرة (عسير) حيث يقال: فلان ير فلان، أي: ابن فلان، وقد وردت هذه اللهجة في النقش العربي الذي يعود إلى سنة ٣٢٨م انظر بعلبكي ص ١٢٤. وعلى أي حال فإن هذه الراء ليست أصلية، فهي من آثار تبادل الراء والنون بدليل أنها تعود إلى أصلها في صيغة الجمع الآرامية.

(٢) وأصلها bant وأصل هذه: bint كما في العربية. انظر جزيبوس ص ١٢١.

العربية	الأكدية	العبرية	الآرامية	العربية الجنوبية
أمة	amtu	āmā	amtā	amāt
ضرة	ṣerretu	ṣārā	ʿarrtā	ḍar
شنيّة	šubultu	šibbōlet	šebbelā	sabl
كلية	kalītu	kiliā	kolīā	kelīt
ليلة	lātu	lāilā	lelīā	lēlīt
قوس	qaštu	qēšet	qēštā	qast

يتّضح من الكلمات التي تظهرها هذه الأمثلة أن العربية التزمت التاء المسبوقة بفتحة في جميع الأمثلة التي ظهرت عليها علامة التانيث. أما الأكدية والآرامية فقد كانتا تراوحان بين التاء المسبوقة بساكن والتاء المسبوقة بمتحرك. وأما العبرية فقد انتهت فيها معظم الكلمات بألف التانيث في نحو: ليلي ونجوى، مما يرجّح أن تكون هذه الألف منقلبة في الأصل عن تاء — كما سنبين لاحقاً عند الحديث عن ألف التانيث.

ولعلّ الكلمات المؤنثة التي لم تظهر عليها علامة تانيث، نحو: قوس و sabl و ḍar تمثل الوضع الأصلي لوضع هذه الكلمات قبل أن تسري عليها قاعدة التانيث بالعلامة. ويُعدّ إلحاق علامة التانيث بهذه الألفاظ في بعض اللغات السامية أمراً مُسَوَّغاً؛ فاللغة تميل إلى البساطة، واطّرادُ القواعد ضربٌ من ضروب التبسيط. ومن أمثلة ذلك في الأكدية أن دخلت التاء على «كبد» فقبل kabittu (التاء الأولى تقابل الدال في كبد، والتاء الثانية هي تاء التانيث. ومن ذلك في الأكدية أيضاً batūltu ومعناها: البتول. وقد أنثت هذه الكلمة في العبرية بالهاء

בַּתּוּלָה «بتولا»، وأما في السريانية فقد دخلت عليها تاء التانيث

ܒܬܘܠܬܐ

من بقايا التأنيث بالتاء التي سكّن ما قبلها

ذكرنا من أمثلة التأنيث بالتاء التي جاء ما قبلها ساكناً: بُنْتُ، وأُخْتُ وهُنْتُ، وقلنا إنّ هذه الألفاظ هي بقايا من أثر هذه الظاهرة السامية القديمة؛ وشواهدا في غير العربية من شقيقاتها الساميات أوسع انتشاراً وأكثر عدداً. ونودّ أن نشير هنا إلى بعض ما يمكن أن يُحمل على هذه الظاهرة من ألفاظ انتهت بتاء مسبوقه بساكن. ونشير أيضاً إلى تفسير النحاة واللغوين القدامى للتاء الواردة في أواخر هذه الكلمات.

١ — مَنَّة (=مَنْت): وهي مِنْ «مَنْ» الاستفهامية. جاء في «اللسان» أنّه يجوز أن يقال: مَنو، وَمَنِي في المفرد، رفعاً وخفضاً؛ وَمَنانٌ وَمَنَيْنٌ في المثني رفعاً، وخفضاً، ونصباً؛ وَمَنَيْنٌ، وَمَنونٌ في الجمع. وقال ابن منظور: «وتقول في المرأة: مَنَّةٌ وَمَنْتَانٌ وَمَناتٌ، كلّهُ بالتسكين وإن وصلت قلت: مَنَّةٌ يا هذا وَمَناتٌ يا هؤلاء»^(١).

وقال ابن يعيش: «فإن قال: رأيت امرأة. قلت: مَنَّةٌ وَمَنْتٌ كما يقال: ابنة وبنت، وإذا قال هاتان امرأتان. قلت: مَنَّتَان. وإذا قال: رأيت امرأتين أو مررت بامرأتين. قلت: مَنَّتَيْنِ بإسكان النون كأنه ثَنِي مَنَّتٌ فقال: مَنَّتَانٌ كما يقال: بَنَّتَانٌ وَبَنَّتَانٌ»^(٢).

ويبدو أن فتح النون في «مَنَّة» عند الوقف كان طارئاً وليس أصلياً، إذ الأصل تسكينُ النون كما يحدث عند الوصل، فيقال: مَنَّت، وأما فتح النون عند الوقف فإنه يساعد على إظهار الهاء. وهذا قياس على ما ذهب إليه الليث في تفسير فتح النون في هَنَّة عند الوقف، لإظهار الهاء، فإذا وصلت قلت: هُنْتُ^(٣). ومما يدل على أن الأصل تسكين النون في مَنَّت أن الكلمة أصلاً مبنيةً فهي من «مَنْ».

(١) ابن منظور (من)، وانظر فيشر (١٩٠٤) ص ٨٧١.

(٢) ابن يعيش ١٥/٤.

(٣) انظر ابن منظور (هنت).

٢ — كلتا: وقد عدّها سيويوه وابن جتّي وابن منظور وغيرهم مما أبدلت فيه الواو إلى تاء، وهو الرأي الذي ذهبوا إليه في: أخت وبنت.. وقال ابن يعيش: «وقد اختلف العلماء في هذه التاء، فذهب سيويوه إلى أن الألف للتأنيث، والتاء بدل من لام الكلمة. كما أبدلت منها في: بنت وأخت.. وذهب أبو عمرو الجرمي إلى أن التاء للتأنيث والألف لام الكلمة كما كانت في «كلا»^(١). وثمة وجه آخر يذكره أبو بكر الأنباري^(٢) وهو أن الألف ألف تثنية.

ولا أرى مانعاً يمنع من أن تكون «كلتا» من «كل» باعتبارها اسم جمع نحو بقر، فلما أردنا أن نفرده قيل: كلت^(٣) كما في: بقرة من بقر، وحمامة من: حمام، وكما تُثْنِيت بقرة فقيل: بقرتان قيل في تثنية كلت: كلتا، وقد حذفت النون لأن التعبير بـ «كلتا» يلزم الإضافة. وعلى هذا تكون «كلا» صيغة المثنى المذكر قد جاءت في مرحلة لاحقة، حيث اقتضى القياس أن تذكر «كلتا» فقيل في تذكيرها: «كلا» وقد شجع على هذا أن الكلمة سقط مفردا المؤنث من الاستعمال أو كاد.

٣ — ذات: ذهب سيويوه إلى أن أصل هذه الكلمة ثلاثي، وأن التاء عَوَضَ من لام الكلمة المحذوف، فهي على وزن «فَعْل» في الأصل واستدل سيويوه على ذلك بأن المحذوف يعود إلى الكلمة إذا نسبّت، فقلت: ذَوَوِي. قال: «وكذلك الإضافة إلى ذات: ذَوَوِي، لأنك إذا أضفت حذف الهاء فكأنك تضيف إلى «ذي»^(٤)». ولكن التاء في «ذات» — بصرف النظر عن أصلها — تدل عند القدماء على التأنيث. جاء في اللسان: «وقال الليث في تأنيث ذو: ذات. تقول: هي ذات مال»^(٥).

(١) ابن يعيش ٥٥/١، وانظر ابن منظور (كلا).

(٢) انظر أبا بكر الأنباري ص ٦٧٤.

(٣) انظر شاهد «كلت» الذي أورده أبو بكر الأنباري ص ٦٧٤

في كلت رجلين سلامى واحدة كتابهما مقرونة بزايدة.

(٤) سيويوه ٣٦٧/٣ ويقصد سيويوه بالإضافة: النسبة وانظر الجوهري (ذا).

(٥) ابن منظور (ذو وذات)، وانظر ابن يعيش ٥٣/١.

وأجازوا الوقوف على ذات لتصبح التاء هاء. قال ابن منظور: «فإذا وَقَفَتْ فمنهم من يدع التاء على حالها ظاهراً في الوقوف لكثرة ما جرت على اللسان، ومنهم من يرد التاء إلى هاء التأنيث، وهو القياس»^(١).

ويقارن بعض علماء الساميات^(٢) بين ذا وذات في العربية و **זָהָא** (זָהָא) **זֶה** بمعنى: «هذا»، و **זֶה** بمعنى «هذه» في العبرية، والمقابلة قائمة، لا يحول دونها اختلاف المعنى بين العربية والعبرية فالمعنى الإشاري يظل قائماً بين استعمال اللغتين لهما و «ذا» في العربية كالعبرية: اسم إشارة أيضاً. كما أن كلتا اللغتين ميّزت فيهما بين المذكر والمؤنث. وعلى غرار «ذا» و «ذات» يمكن أن تُعالج «أولو» و «أولات»

٤ — ذَيْتٌ وَكِيتٌ: من قولك: كان ذيت وذيت، وكان كيت وكيت. قيل في «ذيت» و «كيت» إن تاءهما عوضٌ عن واو محذوفة، ويرى أصحاب هذا الرأي أن أصلهما: ذَيَوٌ وَكِيَوٌ ثم حذفت الواو فبقي الاسم على حرفين فشدد ثم عوّض عن التشديد التاء^(٣).

٥ — ثنتان: وهي مؤنث «اثنان»، وأمّا الواحد المذكر فهو: الثّني وقال ابن منظور في «الثّني»: «واحد اثنان الشيء أي تضاعفهُ». أمّا عن أصل التاء في ثنتان فيقول ابن منظور: «والمؤنث: الثنتان، تأوّه مبدلة من ياء؛ ويدلّ على أنّه من الياء أنّه من ثنيت؛ لأنّ الاثنين قد ثني أحدهما إلى صاحبه. وأصله: ثنّي، يدلّك على ذلك جمعهم إياه على أثناء بمنزلة أبناء وأخاء فنقلوه من فَعَلٍ إلى فَعِلٍ كما فعلوا في بَنَت. وليس في الكلام تاء مبدلة من الياء في غير افتعل إلّا ما حكاه سيبويه من قوله اسْتَنَوَا، وما حكاه أبو عليّ من قولهم ثنتان»^(٤).

(١) ابن منظور (ذو وذات).

(٢) انظر جزيبوس ص ١٩١ وبروكلمان (١٩٠٤) ص ٥٢١، وفischer (١٩٠٤) ص ٨٧١ وبارث

(١٩٠٣) ص ٦٣٦.

(٣) انظر: ابن منظور (ذو، ذوات)، وانظر: ابن عصفور ٣٨٨/١.

(٤) ابن منظور (ثني) وانظر ابن عصفور ٣٨٨/١.

٦ — عَفْرِيت: تعددت الأقوال في هذه الكلمة؛ فمنهم من عدّها ثلاثية فهي عندهم من «عفر» والياء زائدة، ومنهم من عدّها رباعية، على أنّ الياء فيها أصلية، فهي على وزن فَعِلَّة. والرأي الأول أصح؛ لأن الياء — كما قال ابن منظور — «لا تكون أصلًا في بنات الأربعة». وقيل في ياء عفریت: جيء بها للإلحاق بالرباعي نحو شِرْذَمَة. أمّا التاء فقليل للإلحاق بنحو: قنديل^(١).

ويجعل الخليل للكلمة شكلين تأتي عليهما: عَفْرِيةٌ وعَفْرِيت. «إذا سَكُنَت الياء صَبُرَت الهاء تاء وإذا حَرَّكَتْها فالتاء هاءٌ في الوقف»^(٢). فالتاء — على هذا الرأي — هي الهاء، كما هي الحال في: بنت وابنة، والفرق بينهما هو أن هاتين الصيغتين تدلّان على المؤنث، أمّا عفریت وعفرية فيوصف بهما المذكر والمؤنث. ولا شأن للفرق المعنوي هنا من الناحية الشكلية اللغوية. إذ قد تدل صيغة المؤنث على المذكر كما في: رَجُلٌ عَلَّامَةٌ وفهامة، وراوية، وهي صيغٌ منحتها التاء صِفَةً المبالغة. وهذا التحليل يلتقي بنا مع ما أورد ابن منظور من أن التاء في عَفْرِية تدل على المبالغة. قال ابن منظور: «والياء في عَفْرِية وعُفارية للإلحاق بشِرْذَمَة وعُذافرة والهاء فيهما للمبالغة»^(٣).

وذهب بعض علماء الساميات إلى أنّ ما جاء على وزن عفریت ونِفْرِيت هو من آثار احتكاك العربية باللغات السامية الشمالية وبخاصة الآرامية^(٤). إن ما قيل في عفریت يمكن أن يقال نحوه في ما شكلها، نحو: صِفْرِيت، وعُزُويت، وسِرِيت (=سُبروت) ويضيف بعضهم إلى ذلك «خُروت» جمع خُرت (الثقب) وهَيْت^(٥) وسَبَّت.

(١) انظر هذه الآراء لدى ابن منظور (عفر).

(٢) المصدر السابق (عفر).

(٣) ابن منظور (عفر).

(٤) انظر فيلبي (١٨٩٢) ص ١٦٧.

(٥) انظر فيشر (١٩٠٤) ص ٨٧٤.

ومن ذلك حانوت، فقد عدّ اللغويون التاء فيها زائدة، وقالوا هي بدل من الواو (حنو). ولا يمنع مانع من أن تكون هذه التاء للتأنيث وأن الكلمة ثنائية الأصل. ومما يؤكد ذلك أن الشكل الآخر لهذه الكلمة قد جاء بتاء التأنيث التي فتّح ما قبلها فقيّل في حانوت: حانة^(١).

٧ — اللّات: قال ابن منظور «واللات صنم لثقيف، وكان بالطائف، وبعض العرب يقف عليه بالتاء، وبعضهم بالهاء، وأصله لاهة، وهي الحية كأن الصنم سُمّي بها، ثم حُدِثَ منه الهاء»^(٢). ويقرّر ابن منظور وابن سيّدة أن الألف فيها زائدة. ويذكر ابن منظور رأياً لابن بري قال فيه «حقّ اللات أن تُدْكَرَ في فصل «لوي»، لأن أصله: لَوِيّة مثل «ذات» من قولك: ذاتُ مال. والتاء للتأنيث. ويذكر رأياً ثالثاً لسيبويه جَوَزَ فيه سيبويه أن يكون «لاء» أصل اسم الله تعالى. قال الأعشى:

كدعوةٍ من أي ربّاجٍ يَسْمَعُ لاهُ الكُبّارُ

ولعلّ رأي سيبويه أقرب الآراء إلى ما يمكن أن يُقرر في أصل هذه الكلمة في ضوء علم الساميات، إذ نجد أن اسم لفظ الجلالة «الله» يعود في اللغات السامية إلى الأصل ^{١٤} أي: أَلَفْ مكسورة ولام بمعنى: القوة والقدرة. ومن معاني الإله في العربية: القادر والقوي. ومن هذا الأصل جاءت كلمة «إلوهيم»^(٣) 'elohīm في العبريّة، وفي الآرامية «إلاه» 'elāh وفي الأكادية «إل» 'ilu وفي السريانية «ألاه» 'alāh وفي العربيّة الجنوبيّة **إلاه**. وقد جاءت هذه الكلمة مؤنثة في بعض اللغات السامية، ففي العربيّة الجنوبيّة جاء إلى جانب صيغة المذكر صيغة المؤنث **إلاهات**^(٤) وفي العربيّة «اللّات».

(١) انظر ابن منظور (حنا).

(٢) ابن منظور (لَوَه).

(٣) الباء والميم في آخر هذه الكلمة هي علامة الجمع في العربية، ويجمع لفظ الجلالة في العربية من باب التعظيم، وتفسر لنا هذه النهاية ما نجده في العربية في «اللهم» فاليم هنا للتضخيم والتعظيم وليست للعرض كما يقول النحاة، بل هي نظيرة الباء والميم في هذه الكلمة من اللغة العربية. انظر ربحي كمال ص ٥٥٤ — ٥٥٥.

(٤) انظر جزيبوس ص ٣٦، ٣٩ — ٤٠ وانظر فلهاوزن ص ٦٩٩.

فإذا أردنا أن نستأنس بعلم الساميات في هذه الكلمة كان علينا أن نتصور أنها ثنائية الأصل وأن الهاء أو التاء إنما هي في الأصل للتأنيث. وقد تكون الهاء من مقتضيات الوقف على صوت المد الذي يعقب الأصل الثنائي فأصبحت إل: «إلاه» كما هو النطق في العريّة والآرامية والسريانية أو: إلوه كما في العبريّة. أما التاء فلا مسوغ لوجودها إلا أن تكون للتأنيث.

ولا يستبعد أن تكون التاء في مثل «لاهور» تاء التأنيث، ويشارك العريّة في هذه الصيغة اللغة الآرامية. وقد شك ابن منظور في أن تكون هذه الصيغة عربيّة. قال: «وأما لاهوت فإن صحّ أنّه من كلام العرب فيكون اشتقاقه من لاه ووزنه فعُلُوت مثل رَغَبُوت ورَحْمُوت»^(١). وقد ذهب بعض علماء الساميات إلى أن ما جاء على وزن فعُلُوت هو من آثار احتكاك العريّة بالسريانية. وقد ردّ هذا الرأي بعض علماء الساميات قائلاً: «لا نحسب كلمات من نحو «رَكَبُوت»، و «حَلَبُوت»، و «حَلَبُوت» إلا عريّة نشأت على أرض عربيّة»^(٢).

إن من شأن اللغات السامية أن تؤنث بالتاء وحدها (t) دون أن يُفتح ما قبلها، ومن شأنها أيضاً أن تؤنث بتاء مفتوح ما قبلها (at) كما في فاطمة، وقد تُمدّ الحركة التي تسبق التاء بالضم كما في لاهوت، وقد تُمدّ بالكسر كما في medritu وتعني بالأهمرية^(٣) «الأرض» وقد تُمدّ بالفتحة، الطويلة (أي الألف) كما في: حماة. وهذا يقتضي أن نأخذ بثنائية هذه الكلمة وأمثالها نحو: غضاة، وقطاة، ولهاة، وإيلات. ومن أمثلة ذلك في الأكاديّة aššātu (أي: أنثى) و kallātu (ومعناها: عروس) ومن السريانية hemātā ومعناها: حماة، وقد جاءت مُمالة نحو الضمّ في العبرية hamot ومُمالة إلى الكسر بالأكادية emētu^(٤).

(١) ابن منظور (لوه).

(٢) فيليبي ص ١٦٧.

(٣) انظر بروكلمان (١٩٠٨) ١/٤٠٩.

(٤) انظر بروكلمان (١٩٠٨) ١/٤١٠.

تاء التانيث أم تاء العوض؟

ليسبويه ومن سار على مذهبه منطلق موحد من هذه الكلمات الثنائية التي تضمّنت تاء التانيث وسواها، نحو: أب وحـم وبنت وهنت إلى غير ذلك مما عالجـه في باب الإضافة إلى ما فيه الزوائد من بنات الحرفين^(١). ويأتي نفـيهم لاعتبار التاء للتانيث من منطلقهم في تقدير أصل ثلاثي لهذه الكلمات، فراحوا يفتشون عن الحرف الثالث ويقدرـون وجوده إن لم يظهر، ويقدرـون التاء عوضاً منه.

إن الانطلاق في تفسير كثير من هذه الكلمات على أنها أحادية أو ثنائية الأصل له ما يسوّغه، فهي مؤلفة من حرف، كما في «ذا»؛ أو حرفين، كما في «ثنتان»، وقد رأينا كيف أن الجذور السامية لهذه الكلمات تشير إلى ثنائيتها أو أحاديـتها، وأن هذا الأصل الثنائي كان قابلاً للتوسّع الاشتقائي، الذي هو من ألزم متطلبات التطور اللغوي في أسرة اللغات السامية على وجه الخصوص. وكان من مظاهر هذا التوسّع مدّ صوت العلة في آخر الكلمة كما في: حمو، وأبو وأبي، وأخا، وفقاً لأصول لغوية وظيفية، كمراعاة حالات النصب والجر والرفع وكان من هذه المظاهر أيضاً أن يُضاف إلى الكلمة التاء لتقوم بدور وظيفي وهو الدلالة على التانيث، وهو أمر لا يقبل الجدل، فهل من شك في أن التاء وحدها هي التي تفرّق بين المذكر والمؤنث في: كلا وكلتا، واثنان وثنتان، وابن وبنت، وذا وذات؟ فهي للتانيث وإن لم يكن ما قبلها متحركاً.

(١) انظر سيويه ٣٦١/٣.

إنَّ أحدًا من القدماء لم يشك في أن التاء في «مَنْت» ليست عوضاً، بل هي للتأنيث، وهي من الكلمة الثنائية المبنية «مَنْ» وقد سُبقت تاء التأنيث فيها بساكن، بل قاسوا: مَنْه وَمَنْت بـ: هَنْه وهَنْت، وقفاً ووصلًا، فليَمْ لا تُعَدُّ «هَنْت» من أصل ثنائي هو: «هَنْ» ثم لحقت بها علامة التأنيث ۞

ولعلَّ من دعائم الرأي القائل: إن التاء في نحو: عِزْرِيْت وعِفْرِيْت، والتاء في نحو: رَحْمَوْت وملَكُوْت، للتأنيث أن نجد نظيراً لهذه التاء في بعض اللغات السامية. فمن علامات التأنيث في العبرية التاء المسبوقه بياء ساكنة المسماة (جريق) جُول (بـ) والتاء المسبوقه بواو ساكنة المسماة (شروق). ومثال الأولى:

וְיָבִיטָא תְּجַלִּית (ومعناها: اكتشاف، ويقابلها بالعربية «تَجْلِيَة» من: جلا) וְיָבִיטָא حَابִית ومعناها خابية). ومثال الثانية: מַלְכָּה מְלֻכּוֹת ومعناها: مملكة، וְאֶלֶּלֶת אֲصִיּוֹלוֹت ومعناها: أصالة أو نُبل.

ومما يمكن أن يُقدّم دليلاً على أن التاء التي سُبقت بساكن في نحو أخت وما شاكلها تاء تأنيث أن نجد بعض الكلمات التي انتهت بتاء فُتح ما قبلها في العربية نحو «خالة» قد جاء نظيرها في بعض اللغات السامية مؤنثاً بتاء تأنيث مسبوقه بساكن. ففي بعض اللهجات الحبشية يقابل «خالة» *haltu* «حلتو»^(١) أي: خالة. ومن ذلك أيضاً أن ما يقابل كلمة ثَمَرَة العربية كلمة *tamart* في الحبشية ومعناها: نُخْلة. وحتى التاء التي فُتح ما قبلها في نحو: «سَنَة» فإن التاء فيها ليست للعوض، بل هي للتأنيث، فقد استعملت هذه الكلمة في بعض اللغات السامية بصورتها الثنائية دون أن تلحق بها علامة التأنيث^(٢).

(١) وهذا ما يحصل أحياناً في بعض اللهجات العربية الدارجة. ويبدو ذلك جلياً حين تضاف، نحو: خالة وعمة وكريمة... إلى الضمائر: خالتي، كريمي...

(٢) جاءت في الآرامية القديمة بدون تاء هكذا *snn* انظر «ديجن» ص ٥١.

ولعلّ مما يؤكد ثنائية كثير من الألفاظ العربيّة التي عُولجت على أنّها ثلاثيّة أن ترد نظائر هذه الألفاظ على صورتها الثنائية في لغات ساميّة أخرى تضمّنتها نصوص مוגلة في القدم. ومن ذلك أنّ كلمة «واحد» التي نجدها في المعجم تحت المادة الثلاثيّة (وحد) قد جاءت في الآرامية القديمة بأصلها الثنائي **ܐܚܕ** «حدى» أي: ومعناها «واحد» ومؤنثها بالألف كما في العربيّة **ܐܚܕܐ** «حدى» أي: إحدى. وما تزال العربيّة تحتفظ بكلمة «سبت» بمعنى أسبوع^(١) وقد جاءت هذه الكلمة من «سب» (= **ܣܒ** بالآرامية القديمة) وقد أضيفت إليها العين فأصبحت «سبع» (وفي الآرامية **ܣܒܐ** إلى جانب **ܣܒ**) وتدل في اللغات الساميّة على الرقم (٧)، وقد أضيف إلى الصورة الثنائية تاء التانيث فصارت «سَبَت» ومن معانيها في العربيّة «أسبوع» وفي الآرامية حصل الشيء نفسه فقد أضيف إلى الأصل الثنائي **ܣܒܐ** «شب» (ومعناها: سبع) تاء التانيث فأصبحت الكلمة **ܣܒܬܐ** ومعناها أيضاً أسبوع. ولا ننسى أن ننوّه بأن كلمة السبت وردت في العربيّة من حيث الجنس كـ «أسبوع» و«أسبوع» وكلتاها مؤنثتان. والسبت هو اليوم السابع في الأسبوع فليس غريباً أن يكون أصل معناه ذا علاقة بالرقم (٧). ومما يؤكد ذلك أن اليوم الذي يليه هو الأحد ويقابله الرقم (١) فالأثنين فالثلاثاء.. وكلها أرقام تؤكد التسلسل الذي ينتهي بالرقم (٧) أي «السبت»، إلّا «الجمعة»^(٢) وفي ختام هذا الحديث عن أن التاء التي سكن ما قبلها في أخت وبنت وما شاكلها هي تاء التانيث ننوّه بما يأتي:

— ما قاله الفراء من أن التاء في: بنت وأخت تصير هاء عند التصغير، فتقول: بُنْيَة وأُخْيَة^(٣).

— ما أورده سيبويه عن يونس من أجازة النسبة إلى نحو: أخت وبنت فيقال: أُخْتِي وبُنْتِي وثُنْتِي^(٤).

(١) انظر ابن منظور (سَبَت) فقد نص على أنّ من معاني «السبت»: الأسبوع.

(٢) إن تسمية يوم الجمعة بهذا الاسم تسمية إسلاميّة. وقد كان يعرف في الجاهلية بالغروبة.

(٣) انظر هذا الرأي للفراء لدى أبي بكر الأنباري ص ١٣١.

(٤) انظر سيبويه ٣/٣٦١، ٣٦٣.

— إن طريقة التأنيث بالتاء التي سكن ما قبلها ظاهرة قديمة في اللغات السامية، وقد احتفظت العربية بهذه الشواهد القليلة عليها، والشواهد في غير العربية كثيرة نسبياً كالأكادية والآرامية والعربية الجنوبية^(١) والحبشية^(٢) والسريانية^(٣).

— لو كانت التاء تعويضاً عن الواو فلماذا لم يعوّض عن الواو المحذوفة في نحو: ابن وأخ^(٤) وهن. فالوجه، إذن، أن هذه التاء للتأنيث، بيد أن عدم توالي السواكن لم يستدع الإتيان بالفتحة التي مرّ بنا أنها استقدمت للتخلص من توالي السواكن.

(١) انظر بروكلمان (١٩٠٨) ص ٤٠٤ وما بعدها.

(٢) انظر بريتوريوس ص ٨٧.

(٣) انظر بروكلمان (١٩٨١) ص ٥٥، ونولدكه (١٨٩٨) ص ٤٨ وما بعدها.

(٤) ضُمّت همزة أخ عند التأنيث فصارت أخت، أما في العربية فظلت مفتوحة، وقد كسرت في الحبشية

فهى eht، على غرار «بنت» وفي الحبشية bent. وقد عرفت اللهجات العربية الحديثة الحالات

الثلاث: الضم والفتح والكسر.

ثالثاً: ألف التانيث

وهي في العربية على نوعين: الألف الممدودة كما في صحراء والمقصورة كما في ليلى. ويؤكد النحاة أنّ هذه الألف أو تلك لا تختصّ أيّ منهما بالدلالة على المؤنث، فقد تنتهي كلمة ما بالألف المقصورة دون أن تكون مؤنثة الدلالة، نحو: رجل زبّعى (سيء الخلق) وجمل قَبْعَثْرَى (ضخم شديد) ومما انتهى بالألف الممدودة دون أن يكون مؤنثاً: رجل عيّاى وطبّاقاء، وبُسْر قريّئاء، وأسراء، وفقهاء^(١).

ولعلّ الألف بنوعها قد تطوّرت في الأصل عن التاء ومما يؤكّد هذا أن التاء إذا وُقف عليها قد تُنطق هاء كما في فاطمة، وسيرة^(٢)، وطلحمة وقد حصل في العبريّة — كما بيّنا — أن أصبحت تاء التانيث هاء في كثير من الكلمات نحو: **מלחמה** «مِلْحَمَاه» ومعناها: حرب. والهاء قريبة المخرج من الألف. وقد يكون للتّبر^(٣) أثر كبير في مدّ هذه الألف المحولة عن الهاء، فإن كان المدّ يسيراً كانت ألفاً مقصورة، وإن كان مدّاً طويلاً يوشك التّفَسُّ معه أن ينتهي انتهت هذه الألف بالهمز. والتبادل بين المقصور والمدود يحصل^(٤) في العربيّة، كما في البكا والبكاء «سُمع فيه القصر والمد»^(٥) والمينا والميناء^(٦). ومن الألفاظ المؤنثة التي ورد فيها المدّ والقصر: صنعا وصنعاء، والوفا والوفاء، والأصل مدها^(٧). والغناء والغنى^(٨): (ضد الفقر) ومن ذلك: السنّا والسناء وهو ثَبْتُ. قال الوشاء: «يجوز قَصْرُهُ ومَدُّهُ»^(٩). وقد حصل

(١) انظر لمزيد من الأمثلة على النوعين: التستري ص ٤٨.

(٢) انظر ابن عصفور ٤٠٢/١.

(٣) لاحظ كيف تنطق «فاطمة» حين تُنادى في اللهجة المغربية مثلاً.

(٤) نص القدماء على ذلك، فجوزوا قصر المدود ولم يميزوا العكس. قال الوشاء «وقد يجوز قصر المدود، ولا يجوز مد المقصور»، وتحدث ابن هشام عن التبادل بين المقصور والمدود في أوضح المسالك ٢٩٦/٤.

(٥) الوشاء ص ٣٣.

(٦) انظر الزبيدي ١٨ — ١٩.

(٧) ابن هشام (أوضح... ٢٩٦/٤).

(٨) ابن هشام (أوضح... ٢٩٧/٤).

(٩) الوشاء ص ٣٣.

التبادل بين الألف والتاء، كما في مَغْنَى ومَغْنَاة، ومِذْرَى ومِذْرَاه، ومعْنَى ومعْنَاة^(١) وجمعت الشاة على: الشاء. كما حصل التبادل بين الألف المقصورة والهمزة فقليل في حبلى عند الوقف: حُبْلَاء^(٢).

ويقال في وصف المرأة: «امرأة ولهى وواله ووالهة وميلاه»^(٣) ويظهر من هذا المثال كيف أن العربية جمعت وجوهاً متعددة من التطور التاريخي للكلمة، فواله وصّف بدون علامة تأنيث، ولعلّه الأقدم، ثم والهة تأنيث بالتاء، ولهى تأنيث بالألف المقصورة.

ولا يخفى أن اللهجات الحديثة يغلب عليها التخفيف من الألف الممدودة في نحو: صحراء وحمراء، فقد تنطق هذه وأمثالها بالهاء أو الألف المقصورة: «صحرة» أو «صحرا». وقد حدث هذا وعكسه قديماً فقليل: السَّعْلاة، بالتاء، والسَّعْلاء، والسَّعْلا. قال ابن منظور «وكذلك السَّعْلا، يمدّ ويُقصر»^(٤). وورد في تأنيث كسلان: كَسِلَّة وكَسَلَى وكَسْلانة وكَسُول ومِكْسَال^(٥)، وقيل في تأنيث سكران: سَكِرَّة وسَكْرَى وسَكْرانة^(٦). ونُقل عن أهل الأندلس وصقلية أنهم كانوا يؤنثون بالألف مكان التاء فيقولون: فَرَس ورْداء، أو ورداء بدل ورْدة، وقرْفاء وحُلْباء بدل قرفة وحُلْبة، وجارية عزباء بدل عزبة قياساً على نحو: صحراء والغَمِيضَة بدل الغَمِيضَى والغَمِيضَاء، ودِفْلة بدل دِفْلَى^(٧).

(١) انظر أبا بكر الأنباري ص ٦٦٠.

(٢) انظر ابن عصفور ٣٢٥/١.

(٣) ابن منظور (وله).

(٤) ابن منظور (سعل).

(٥) انظر ابن منظور (كسل) والجوهري (كسل).

(٦) انظر الجوهري (سكر) وابن منظور (سكر).

(٧) انظر مطر ص ٢٧٣ — ٢٧٤.

أما عن وجود الألف علامة على التأنيث في اللغات السامية فإن الألف الممدودة قليلة الاستعمال في هذه اللغات. وأما الألف المقصورة فقد عرفت بها بعض اللغات السامية كالعبرية والآرامية^(٥) وقد حدثت المزاوجة بين الألف والتاء في الآرامية كما حدث في العربية. فالأعداد: إحدى **חדא** ، وثلاثة **תלתא** ، وستة **שיתא** ، وثمانية **תמנא** جاءت مؤنثة بالألف. أما الأعداد: أربعة **ארבעא** ، وخمسة **חמשה** ، وسبعة **שבعة** ، وتسعة **תשעה** ، وعشرة **עשרה** فقد جاءت مؤنثة بالهاء، وهي تاء عند الإضافة حين توصل، كما هي الحال في العربية والعبرية.

(٥) انظر بروكلمان (١٩٠٨) ص ٤١٠ و «بيرجشترسر» ص ١١٥ و «دلمان» ص ١٢٥.

الجمع وعلامات التأنيث

يُعَدّ الجمع بالألف والتاء أظهر علامات جمع المؤنث في العربية^(١)، وهي السائدة في اللغات السامية، فهي في العبرية ألف وتاء، كما في العربية، غير أن ما يقابل الألف والتاء في العربية ألف مُشَمَّة بالواو 𐤀 وتاء في العبرية. وهي نفس الألف والتاء السريانية بطريقة نطق السريان الغربيين حيث تجمع «روحو» rūhō على: «روحو» rūhōtō، أما السريان الشرقيون فينطقونها بالمد المفتوح على نحو ما تُنطق بالعربية «روحا»^(٢) rūhātā. وتستخدم الأكادية الألف والتاء كذلك، نحو bussurtum «سفارة» وتجمع على bussurātum. وقد تأتي الألف مماله في الأكادية إذا كان المفرد فيه حرف إمالة أصلاً (e)، فكلمة elletum «طاهرة» تجمع على ellētum. ويُذكر هذا بما يجري في العربية حين تُجمع فاطمة، على فاطمات، بإمالة الميم في فاطمة^(٣) نحو الكسر، وإمالة ألف جمع التأنيث في فاطمات.

وتميل العربية — كغيرها — إلى اطراد قواعدها، ويظهر هذا في جمع المؤنث، فما انتهى بتاء التأنيث، نحو: فاطمة وكرمة يجمع بالألف والتاء: فاطمات وكريمات، وكذا في، فتاة، وبنث ومُصْطَفَاة، فهي تجمع على القاعدة نفسها: فتيات، وبنات، ومصطفيات.

وتُطَرِّد قاعدة الجمع بالألف والتاء أيضاً فيما لم ينته بتاء التأنيث، فيجمع نحو: دعد وهند وزينب على دعدات وهندات وزينات، وتجمع صفات المرأة: الصبور والجريح والحبل، على: صبورات وجريحات وحُبلات. كما يجوز في صحراء وكُبرى وما شاكل ذلك مما انتهى بغير التاء من علامات التأنيث أن يجمع بعلامة الجمع المطردة في المؤنث وهي الألف والتاء، فيقال: صحراوات وكُبريات.

(١) قد يوقف على التاء في جمع المؤنث كما يوقف عليها في المفرد، قال ابن عصفور ٤٠٣/١: «وحكى قطرب عن طيء أنهم يفعلون ذلك بالتاء من جمع المؤنث السالم، فيقولون: «كيف الإخوة والخواه، وكيف البنون والبناه؟».

(٢) الألف في آخر الكلمة هي أداة التعريف بالسريانية.

(٣) وقد أشرنا إلى هذا سابقا عند الحديث عن التاء التي فتح ما قبلها انظر ص ٣١

وكما اطرّدت هذه الظاهرة في العربية فقد اطرّدت أيضاً في أخواتها الساميات، فمن ذلك في الأكادية ekallum ومعناها: قصر، وهي مؤنثة بغير علامة تأنيث ولكنها جُمعت بالألف والتاء ekallātum ومعناها: سفينة، وهي بدون علامة تأنيث وجمعها ellepātum بالألف والتاء. ومن ذلك في العبرية: יָלַךְ ومعناها: غابة، و «زروع» Zerō ومعناها: ذراع و «خَلّون» חָלָל ومعناها: نافذة، فإنها تُجمع وأمثالها بزيادة علامة جمع المؤنث זָלָל

مع أنّ مفرداتها لم تنته بأيّ من علامات التأنيث، ومن ذلك في السريانية: «رُوحا» rūḥā ومعناها: الروح، و «عينا» ʿaynā ومعناها: عين الماء فإنها تجمع — على خلوها من علامات التأنيث في المفرد — بالألف والتاء. فيقال rūḥāʾā و ʿaynāʾā.

بيد أنّ هذه القاعدة لا تطرّد دائماً؛ فقد نجد ألفاظاً في العربية مؤنثة ولكنها تُجمع بغير الألف والتاء، كما في عُتُق: أعناق، و صَفَاة: صُفَى أو أَصْفَاء، و سنة: سِنُون، و يجوز، في «عَصِيم» ومعناه: عَظْمَة أن تجمع بالعربية على قاعدة جمع المذكر، أي بإضافة ياء ساكنة وميم: عَصِيم. وكذا: شَنَّة شِيَاب ومعناها «سنة» فإنه يجوز أن تجمع جمع مذكر «شيم». وهذا ما حصل في العربية حيث جاز في سنة أن تجمع على سنين وعلى سنوات. ومن المؤنثات التي جاز فيها أن تجمع على غير قاعدة جمع المؤنث في اللغة السريانية: مِيلثا mēlṭā ومعناها «كلمة» وتجمع جمع المذكر: مِيلِي mēlī، و «جَنَثا» ganṭā ومعناها «جُنينة» وجمعها على جمع المذكر: gannē. أمّا: شِيَا sātā ومعناها «سنة» فجمعت كذلك على غير ما يجمع به المؤنث: حَنَثَا ṣenāyā.

ونجد في بعض اللغات السامية ما نجده في العربية من ألفاظ مجموعة دون أن يكون لها مفرد من جنسها، نحو: نساء ومفردا امرأة، وفي السريانية نجد الكلمة نفسها نَسَا nēse ومعناها: نساء، ومفردا نَسَا nēse ومعناها: أنثى أو امرأة. وفي الأكادية جاءت كلمة summirātum ومعناها: «أمانى» وهي جمع مؤنث بدون مفرد.

ومن الظواهر المشتركة في اللغات السامية أن يُجمع المذكر بأداة تانيث؛ فيجمع «جَمَل» في العربية على: جِمال، وجمالة، وجماليات؛ و «رَجُل» على: رجال، ورجالات، و «بيت» على: بيوت وبيوتات.

وتُجمع **אב** «آب» ومعناها: أب، جمع المؤنث في العبرية، فيقال **אבות**، و **נשם** «شيم» ومعناها: اسم، على **נשמות**، أي جمع مؤنث. ولو جُمعت هذه الأسماء المذكورة على طريقة جمع المذكر لقال «أپيم» و «شميم».

ومن ذلك في الأكادية **našpākum** «نَشْبَاكُم»، ومعناها: مَحْزَن وهي مذكر، ولكنها جُمعت جَمْع مؤنث **našpākātum**. وجمعت «كَلْب» **kalb** في الحبشية ومعناها: كَلْب، على: «كليات» **kalabāi**.

وثمة ظاهرة معاكسة لهذه الظاهرة، وهي وجود ألفاظ مؤنثة، بيد أنها قد تُجمع جمع مذكر، ومنها في العربية: أرض، وسنة، وعضة.. فهي تجمع على: أرضون، وسنون، وعضون. ومن ذلك في السريانية أن تجمع ساعة **ܡܚܠܐ** «شاعتا» — وهي مؤنثة — على «شاعى» و **ܡܚܠܐ** «ميلتا» ومعناها «كلمة» جُمعت على **ܡܠܐ** وهو جمع مذكر، وكذا: أي: «حنطة» جُمعت على **ܫܡܐ**. ومن العبرية **בִּישָׁה** «بيصاه» ومعناها: بَيْضَة وتجمع على **בִּישָׁה** «بيصيم»، و **שָׁנָה** «شنه» ومعناها سَنَة، وتجمع على **שָׁנִים** «شَنيم». ويجوز جمعها على **שָׁנִים** أي: جمع مؤنث كما في العربية، إذ يجوز في سنة أن تجمع على سنون وسنوات.

التأنيث والتذكير في العناصر الإشارية

ونقصد بذلك الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة.

أولاً الضمائر:

١ — ضمائر التكلم

لم تميّز اللغات السامية بين المذكر والمؤنث سواء فيما يتعلق بالمفرد أو الجماعة.

٢ — ضمائر الخطاب:

أ — في الأفراد:

تميّز العربية والحبشية والأكدية والعبرية بين المذكر المخاطب والمؤنث المخاطب عن طريق الفتح والكسر، فالمذكر مفتوح الآخر في هذه اللغات. أما المؤنث فمكسور الآخر، هكذا: في العربية والحبشية: أنث وأنث، وفي الأكدية attā للمذكر و attī للمؤنث وفي العبرية: attā و att(i). هذا مع ضمائر الرفع المنفصلة. والمبدأ ذاته — أي الميز بينهما من خلال الفتح والكسر — قائم في الضمائر المتصلة بالأسماء والأفعال، فكما تنتهي صيغة المذكر المخاطب في العربية مع الضمير المتصل بالاسم بالفتح نحو «كتابك»، ومع المؤنث المخاطب «كتابكِ»^(١)، فإنها تنتهي كذلك في الأكدية والحبشية بغير أن الحبشية تمدّد صوت الكسر ليصبح ياء وقد تفعل العبرية كذلك فتمدّد صوت الكسر أو تسكّن الكاف كما يحصل في العربية عند الوقف.

(١) وإمعاناً في الفصل بين المذكر والمؤنث نجد أن بعض اللهجات العربية قديماً وحديثاً تقلب الكاف في نحو «ضربتكِ» شينا أو ما يشبه الشين، ولا يحصل هذا إلا مع المؤنث، ومنه قول مجنون ليلى: عيناشر عيناها وجيدش جيدها خلا أن عظم الساق ويشر دقيق انظر ابن عصفور ٤١١/١، وقد علل الفارسي هذا التبادل بين التاء والكاف بقوله «أبدل من التاء الكاف لاجتماعها معها في الهمس» العسكريات ص ٧٩.

ب - في الجمع:

أما عماد الميز بين المذكر والمؤنث في جمع المخاطبين والمخاطبات في العربية فلا يقوم على مبدأ الاعتماد على الحركة: الفتح والكسر بل يعتمد بشكل أساسي على المفارقة الصوتية بين الصوتين الساكنين: الميم والنون. ففي المذكر «أنتم» وفي المؤنث «أنثن»، وهو المبدأ نفسه في الحبشية antémmu للمذكر، و anten للمؤنث. وفي العربية attém للمذكر، و attén (ā) للمؤنث. وأما في الآرامية والسريانية والأكدية فيعود مبدأ الاعتماد على الحركة، وهي الضم والكسر للميز بينهما؛ ففي الآرامية antūn للمذكر و antēn للمؤنث، وفي السريانية attōn للمذكر، و attēn للمؤنث، وفي الأكدية attunu للمذكر، و attina للمؤنث.

وعند اتصال ضمير الخطاب بالاسم أو حين يتصل بالفعل في محل نصب يقال في العربية: كتابكم وكتابكن، وضرّهم وضرّهن، أي أن الميز بين المذكر والمؤنث في الحالين يتم عن طريق اختصاص المذكر بالميم والمؤنث بالنون على نحو ما مرّ في ضمائر الرفع (كم) و (كن). والقاعدة ذاتها تسري على الحبشية kemmū للمذكر و ken للمؤنث، وفي العربية kēm للمذكر و kēn للمؤنث، وفي الآرامية kōm للمذكر و kēn للمؤنث، وقد خرجت على هذه القاعدة كل من السريانية kōn للمذكر، و kēn للمؤنث، والأكدية kun (u) للمذكر مع الأسماء و kina للمؤنث مع الأسماء. وبذا تكون هاتان اللغتان قد عادتتا إلى الاعتماد على الحركات في الميز بين المذكر والمؤنث.

٣ - ضمائر الغيبة:

أ - في الأفراد:

تطرد قاعدة الضم والكسر في الميز بين المذكر والمؤنث في حال الأفراد إذا كانت الضمائر منفصلة. فصوت الكسر يميز المؤنث، وصوت الضم يميز المذكر، وبذا تختلف ضمائر الأفراد المنفصلة في الغيبة عن ضمائر الخطاب. فيقال في العربية «هو» مقابل «هي»، وفي العربية والآرامية والسريانية hū (بمد الواو) مقابل hī (بمد الياء) وفي الأكدية ū مقابل ā بالمد فهما وفي الحبشية we'etu مقابل ye'eti بمد الثاني.

أما إذا كانت ضمائر الغيبة ضمائر جر متصلة بالأسماء أو ضمائر نصيب متصلة بالأفعال، فإن المبدأ يختلف من جانب المؤنث، فهو يمتاز بالفتح. وأما المذكر فيبقى على الضم. فيفرق في العربية بين المذكر والمؤنث، بالضم مع المذكر، نحو: «كتابه» (= كتابٌ + هـ + ة) و «ضربته» (= ضَرَبَ + هـ + ة)، وبالفتح مع المؤنث نحو: «كتبتها» (= كتابٌ + هـ + ا) وضربها (= ضَرَبَ + هـ + ا). ولا تخرج الحبشية والعبرية عن ذلك. أما الأكادية فاتخذت من الضم مميّزاً للمذكر والكسر مميّزاً للمؤنث في حال اتصال ضمير النصب بالفعل، وأما عند اتصاله بالاسم فقد اطردت القاعدة كما في العربية، بيد أن صوت الفتح مع المؤنث قصير (أي: فتح بدل الألف).

ب — في الجمع:

تسير صيغ جمع الغائب، في الميز بين المذكر والمؤنث، في خطّ مواز لما سارت عليه في جمع المخاطب. أي باعتماد الميم للمذكر والنون للمؤنث، ففي الضمائر المنفصلة يقال في العربية (هُم)، والحبشية *we'etōmu*، والآرامية *himmō (n)*، والعبرية *hēmma*. أما المؤنث ففي العربية «هُنَّ»، وفي الحبشية *we'etōn* والآرامية *hennēn* والعبرية *hēn (nā)*. ويستمر الخطّ الموازي بين ضمائر الغيبة والخطاب في السريانية والآكادية، ولكن باعتماد الحركات فالضم للمذكر — في السريانية *hennōn* والآكادية *šun (u)* — والكسر للمؤنث — في السريانية *hennēn* والآكادية *šina*.

وتبقى الميم خاصة بالمذكر مع ضمائر الجر المتصلة بالأسماء، أو ضمائر النصب المتصلة بالأفعال، وذلك في كل من العربية «هُم»، والحبشية *ōmū* و *hōmū*، وفي العبرية *hēm*، والآرامية *hōm*. أما المؤنث في هذه اللغات فتميزه النون، ففي العربية هُنَّ، وفي الحبشية *ōn* و *hōn*، وفي العبرية *hēnen*، وفي الآرامية *hēn*. أما في السريانية والآكادية فتدخل النون في المذكر والمؤنث. أما الفاصل بين المذكر والمؤنث فهو الضم ويختص به المذكر (ففي السريانية *hōn* وفي الآكادية *šun*)، والكسر ويختص به المؤنث (في السريانية *hēn* وفي الآكادية *šina*).

التذكير والتأنيث في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة:

لو نظرنا في أسماء الإشارة المذكورة الآتية بالعربية: ذا (هذا)، تا، ذلك، فإن مؤنثها هو: ذي (هذي = هذه)، تي، تلك. ويؤخذ من هذا أن الفتح في «ذا» قابله الكسر في «ذي» والفتح في «تا» قابله الكسر في «تي». وهذا يعني أن المفارقة بين المذكر والمؤنث قد تمت في هذه الكلمات من خلال اختصاص المذكر بالفتح على نحو ما حصل في الضمائر (أنت)، واختصاص المؤنث بالكسر على قياس (أنت). وليس هذا القياس بغريب، فالضمائر عناصر إشارية. يؤكد هذا أن اسم الإشارة المذكر في الأكادية annū ومعناه «هذا» يقابله بالعربية: أنا، ومؤنثه annītu ومعناه هذه، ويقابله بالعربية: أنت. ويلاحظ أن اسمي الإشارة الأكاديين قد اعتمدا في ميز المذكر من المؤنث على خص المؤنث بالكسر كما حصل في العربية (ذي) وبالتاء. وهذا ما صنعتته العربية في اسم الإشارة (تي). ومما يؤكد أن التاء علامة تأنيث في أسماء الإشارة اطراد الاعتماد عليها في التأنيث سواء في العربية أو سواها. ولذا كنا نميل إلى أن (تا) الدالة على المذكر بالعربية قد استحدثت في مرحلة تالية لاستخدام (ذا)، وقد كانت (تا) المفتوحة تذكيراً قياسياً لـ (تي) المكسورة.

وهكذا نرى أن المؤنث قد اختص بالكسر وثبت عليه في العربية في كثير من العناصر الإشارية، كأسماء الإشارة (ذي، تي، ذه، ته، هذي، هذه..) والضمائر (أنت، كتبت، كتابك..) وقد خالفت العربية في هذا كثيراً من اللغات السامية كالآرامية حيث جاءت فيها da بمعنى «هذه» دالة على المؤنث، وجاءت zā في الحبشية دالة على المؤنث و ze للمذكر، ودلت zm في العبرية على المؤنث و zo على

المذكر. ولكن اللغات السامية تنكّى على التاء أحياناً في ميز المذكر من المؤنث، كما في «ذلك» و «تلك»، و «أولو» و «أولات»، و «ذا» و «ذات». وفي العبرية أضيفت التاء إلى zo فأصبحت zōt ولم يكتف بالحركة وحدها للميز بين zm المذكورة و zo المؤنثة. وهذا ما فعلته الأكادية في annu «هذا» و annītu «هذه». ويكون الانكفاء على التاء في الميز بين المذكر والمؤنث لازماً إذا توقف الأمر على ذلك كما في «الذي»، و «التي»، و «الذان»، و «اللذان»، و «هذان»، و «هاتان» وما شاكلها.

التذكير والتأنيث في الأفعال:

تمعن اللغات السامية بعامة في فرق المذكر عن المؤنث إمعاناً، فإذا قابلنا بينها وبين بعض اللغات كالإنجليزية مثلاً تبين مدى الفرق بينهما. فأنت تُبقي في الإنجليزية على الفعل go على حاله مع الضمائر جميعها^(١) فتقول: I go, you go, he go, she go, they go, we

go

وتقول بالعربية مثلاً: أنا أذهب، وأنت تذهب، وهو يذهب، وهي تذهب، وهما يذهبان، وهما تذهبان، وهم يذهبون، وهن يذهبن، ونحن نذهب.

إن مبعث هذا الفرق في تصريف الفعل ينهض على الرغبة أساساً في تنوع الضمائر، والتفريق الجلي بين المذكر والمؤنث في العربية، وعدم التفريق بينهما أو ضيق التنوع في الإنجليزية. وهذه المفارقة تكاد تكون واضحة جلية في العربية أكثر من سواها من أخواتها الساميات. وهي باهتة ضعيفة في الإنجليزية أكثر من كثير من أخواتها الهندية الأوروبية كالألمانية مثلاً، فإنها تلتقي مع الإنجليزية في عدم التفريق بين المذكر والمؤنث في تصريف الفعل. بيد أنها تفرق عنها في أن الفعل يبقى في الإنجليزية ثابتاً على حاله غالباً، ويعتمد على الضمير في تحديد المعنى، أما في الألمانية

فيتنوع تصريف الأفعال مع الضمائر Ich gehe, du gehst, er geht, sie geht, sie gehen, Sie

gehen, Ihr geht, Wir gehen (=أنا أذهب، أنت تذهب، هو يذهب، هي تذهب، هم (هن) يذهبون، أنتم تذهبون (للتفخيم)، أنتم تذهبون، نحن نذهب).

ولننظر الآن إلى الكيفية التي سلكتها اللغات السامية في الميز بين المذكر والمؤنث على صعيد الأفعال.

(١) هذا هو الأعم الأغلب وعلى العكس من ذلك I am, you are, he is

أ - الفعل الماضي:

انظر إلى تصريف الفعل «قَتَلَ» في نموذج من اللغات السامية: العربية، والحبشية، والعبرية، والآرامية^(١).

الآرامية	العبرية	الحبشية	العربية	الضمانر
kətal	kātál	katála	kátala	الغائب
ketlat	kātēlā	katálat	kátalat	الغائبة
kətal(tā)	kātáltā	katálka	katálta	المخاطب
kətal(tī)	kātáltī	katálkī	katálti	المخاطبة
ketlet	kātáltī	katálkū	katáltu	المتكلم
kətal(ū)	kātēlū	katálū	kátalū	الغائبون
kətal(ā)	kātēlū	katálā	katálna	الغائبات
kətal tōn	kətal tēm	katal kēmmū	katáltum(ū)	المخاطبون
kətal tēn	kətal tēn	katal kén	katal túnna	المخاطبات
kətaln(ā)	kātálnū	katálna	katálnā	المتكلمون
—	—	—	kátalā	الغائبان
—	—	—	kátalatā	الغائبتان
—	—	—	katáltumā	المخاطبان

ويؤخذ من تصريف الفعل في ضوء الجدول السابق ما يأتي:

١ — أن اللغات السامية تميل بوجه عام إلى التخصيص (قارن ذلك باللغات الهندية الأوروبية، فهي لا تميل إلى التخصيص، ولذا كان من يتعلمون اللغة العربية من أبناء هذه اللغات يخلطون خلطاً كبيراً بين المذكر والمؤنث في تصريف الأفعال).

٢ — أن العربية أكثر هذه اللغات عناية بالفرق بين صيغ المذكر والمؤنث وأوفاهما استيعاباً، فقد زادت على العربية بالميز بين الغائبات والغائبين، أما العبرية فهي تخاطب الغائبات مما تخاطب به الغائبين، على نحو ما يحصل في كثير من اللهجات (١) نجد هذا الجدول وجدولين اللاحقين لدى بروكلمان (١٩١٦).

العربية المعاصرة، وتزيد العربية على بقية اللغات المبيّنة في الجدول بصيغة المثني مذكراً ومؤنثاً: قتلا وقتلتا^(١).

٣ — لم تفرّق اللغات السامية بين المذكر والمؤنث على صعيد المتكلم المفرد والمتكلمين. وكأنما لسان الحال يغني عن البيان أكثر من الضمائر الأخرى التي رأى الساميون أن الميل إلى الدقة يقتضي التحديد فيها، أما صيغة المثني للمخاطبين والمخاطبتين، وهي التي تجنبها اللغات السامية، وأظهرتها العربية، فقيل: قتلتما، فإن العربية لم تخصص، فهي لم تفصل المذكر عن المؤنث على نحو ما فعلت في نحو قتلت وقتلت، وقتلتُم وقتلتُن. ولعلّ السبب في ذلك أن التخصيص ذو وظيفة معنوية، ولما كان المثني قليل الاستخدام نسبياً فإن كثيراً من اللغات السامية لم تحدد له صيغة في كل أحواله، أما العربية فإن حاجتها إلى التخصيص لم تبلغ مبلغاً تحتاج معه إلى أن تخص المذكر منه بصيغة تميزه عن المؤنث، لقلة استعماله^(٢).

٤ — رأينا أن الحبشية استخدمت الكاف بدلا من التاء في: قتلكي وقتلك، مقابل: قتلت وقتلت، بالعربية وأخواتها الأخرى، ويذكر هذا بما جاء في العربية حيث «أبدلت الكاف من تاء ضمير المخاطب في فعلت فقالوا فعَلَك وأُشيد سُجيم قصيدة، فقال: أَحْسَنَك واللّه، يريد أَحْسَنَت واللّه»^(٣).

٥ — مرّ بنا أن بعض اللهجات العربية كانت تبدل كاف الخطاب للمؤنث شيئا، وذلك إمعاناً منها في ميز المذكر عن المؤنث^(٤).

(١) وقد لا تكثر العربية أحيانا — كما يحصل في اللهجات المعاصرة — فلا تفرق بين المذكر والمؤنث في المثني كما في قول زياد الأعجم:

إن الساحة والمروءة ضَمْنًا قبراََ بمرّو على الطريق الواضح
انظر ابن هشام (الشذور) ١٦٩.

(٢) لاحظ أن صيغ المثني قليلة الاستعمال والتنوع في اللهجات العربية المعاصرة بالمقارنة مع الفصحى.

(٣) ابن عصفور ١/٤١٤.

(٤) انصر ص ٥٥ من هذا البحث.

٦ — تحدّثت كتب النحو^(١) عن حالات قد يأتي معها الفعل غير مؤنث مع أن الفاعل أو نائبه يكونان مؤنثين، نحو: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾^(٢) و ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمِهِمْ﴾^(٣) ولا نعرف لهذا نظيراً في اللغات السامية.

ومما لم يعرف عن اللغات السامية ما أجازته العربية في أن يعامل جمع التكسير، واسم الجنس معاملة المفرد المذكر، أو المفرد المؤنث، فجاز في جمع التكسير «وقال نسوة»^(٤) إلى جانب «قالت الأعراب»^(٥). وجاز في اسم الجنس: أوراق الشجر، وأورقت الشجر. قال ابن هشام «فالتأنيث في ذلك كله على معنى الجماعة، والتذكير على معنى الجمع»^(٦) أي كأنك قلت: قال جمع النسوة، أو قالت جماعة النسوة. وهو تعليل لطيف ولكنه لم يبين لنا لماذا لم يُقل: قلن نسوة، وقالوا الأعراب، وهي اللغة التي عُرفت لدى النحاة العرب باسم «أكلوني البراغيث»^(٧) وشواهدا في العربية ليست قليلة، وقيل هي لغة جماعة من العرب، ومن شواهدا قوله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»^(٨) وحمل على ذلك قوله تعالى ﴿وَأَسْرُوا النِّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(٩). ومن ذلك في المثنى قول عبدالله بن قيس الرقيات:

تولّى قتال المارقين بنفسه وقد أسلماه مبعّدٌ وحميمٌ

ومنه مع جمع النسوة قول محمد بن عبدالله العُتبي:
رأين الغواني الشيت لاح بعارضي فأعرضن عني بالخلود والنواضر
ومن هذا القبيل الحديث الشريف: «غضب عمران حتى احمرتا عيناه»^(١٠).
إن هذه الظاهرة «أكلوني البراغيث» تمثّل أصلاً تاريخياً ما تزال العربية تحتفظ له

(١) انظر ابن هشام (الشنور) ص ١٧٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٥.

(٣) سورة المل، الآية ٥١.

(٤) سورة يوسف، الآية ٣٠.

(٥) سورة الحجرات، الآية ١٤.

(٦) ابن هشام (الشنور) ص ١٧٥.

(٧) انظر ابن هشام (الشنور) ١٧٧.

(٨) رواه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة ٣٧ باب فضل صلاتي الصبح والعصر ص ٤٣٩.

(٩) سورة الأنبياء الآية ٣ وانظر ما قاله ابن هشام حولها في شنور الذهب ص ١٧٩.

(١٠) صحيح مسلم، كتاب الإيمان ١٢ باب بيان عدد شعب الإيمان ص ٦٤ طبعة عبد الباقي.

ببعض الشواهد. وهي الأصل المطرد في كثير من اللهجات العربية المحكية، وهي القاعدة في غير العربية من أخواتها الساميات، ويبدو أن العربية قد خرجت على هذه القاعدة لسببين.

أولهما: الجنوح للسهولة واليسر، فأيسر على المستعمل أن يقتصر على نوعين من أنواع التصريف (قالت الأعراب) أو (قال نسوة) من أن يُعَدَّد مع تعدد الصيغ: إفراداً وتثنية وجمعاً، مذكراً ومؤنثاً.

ثانيهما: أنك إذا أخرت الفعل لزمك التحديد والمطابقة فتقول: الرجل جاء والرجلان جاءا والرجال جاءوا والمرأة جاءت والمرأتان جاءتا والنساء جئن، وذلك لأن تقديم الفاعل يعني تحديده كمّاً وجنساً، ولذا جاء الفعل مطابقاً. أمّا إذا تأخر الفاعل وتقدم الفعل، فإن الفاعل يبقى قيد نيّة القائل؛ فله أن يقول: «ذهب» دون أن يعرف على وجه اليقين جنس الذاهب أو عدده أو قد يعرف ذلك ولكنه لأسباب بلاغية يريد أن يعمّي ذلك على السامع، فإنه يملك زمام الأمر في الفاعل فيفرده أو يثنيه أو يجمعه أو يؤنثه أو يذكره، بعكس ما لو كان صرح به قبل الفعل. بل قد يفصل بينه وبين الفاعل بكلام كما في قول الشاعر:

ما برئت من ربيّة وذمّ في خربنا إلا بنات العم^(١)

فإن من حق الشاعر — نحويّاً — أن يقول: «ما برىء»، بل الراجح أن يذكر والمرجوح أن يؤنث^(٢).

(١) انظر ابن هشام (أوضح) ص ٢١٤.

(٢) انظر ابن هشام (الشدور) ص ١٧٦.

ب - الفعل المضارع:

ولننظر كيف ميزت اللغات السامية بين المذكر والمؤنث في تصريف الفعل «يقتل» من خلال الجدول الآتي:

الأكادية	الحدث المستمر الزمن الحالي	السريانية	الإرامية	العبرية	العيشية		العربية		القضائر
					حالة النصب	حالة الرفع	حالة الجزم	حالة الرفع	
ikāšad	ikāšud	nektol	yiktul	yiktol	yektel	yeḳātel	yaktul	yaktulu	القائب
takašad	takšud	tektol	tiktul	tiktol	tektel	teḳātel	taktul	taktulu	القائبة
takašad	takšud	tektol	tiktul	tiktol	tektel	teḳātel	taktul	taktulu	المخاطب
takašadi	takšudi	tektin	tiktēlān	tiktēlā	tektel	teḳātel	taktul	taktulna	المخاطبة
akāšad	akšud	ektol	ektul	ektol	ektel	ekātel	aktul	aktulu	التكلم
lkašad	lkšud	nektin	yiktēlān	yiktēlā	yektel	yeḳātel	yektul	yektulma	القائون
lkašad	lkšud	nektān	yiktēlān	tiktēlā	yektel	yeḳātel	yaktulna	yaktulna	القائبات
takašad	takšud	tektin	tiktēlān	tiktēlā	tektel	teḳātel	taktul	taktulna	المخاطبون
takašad	takšud	tektān	tiktēlān	tiktēlā	tektel	teḳātel	taktulna	taktulna	المخاطبات
nikāšad	nikšud	nektol	niktol	niktol	nektel	neḳātel	naktul	naktulu	التكلمون
—	—	—	—	—	—	—	yaktulā	yaktulāni	القائبان
—	—	—	—	—	—	—	taktulā	taktulāni	القائبات
—	—	—	—	—	—	—	taktulā	taktulāni	المخاطبان

إنّ ما يهمننا من هذا الجدول هو أن نوازن بين اللغات الساميّة فيما يتعلق بظاهرة التأنيث والتذكير، وتتمثل هذه الموازنة فيما يأتي:

١ — تدأب اللغات الساميّة بوجه عام على أن يظهر الفرق بين المذكر والمؤنث في تصريف الفعل المضارع، والعربية في ذلك من أدائها.

٢ — لم تميز العربية ولا أخواتها الساميات في المضارع بين صيغتي المخاطب المذكر مفرداً والغائبة المفردة من الناحية الشكلية اللغوية، وتركت الأمر في هذا إلى السياق.

٣ — فرّق بين المذكر الغائب المفرد وقبيله المؤنث بأن اختُصَّ المذكر بالياء والمؤنث بالتاء (يقتل — تقتل) ولم يخرج على هذا سوى السريانيّة في صيغة المذكر، فقد كانت النون مع الغائب المفرد neqtoi والتاء مع الغائبة المؤنثة.

٤ — ولما التقت صيغة المذكر والمؤنث في المخاطب المفرد (تقتل — تقتلين) على استخدام التاء حرفاً للمضارعة، كان من المتوقع أن يبحث عن وسيلة أخرى للفرق بينهما، وهي وسيلة مألوفة في الفرق بين المذكر والمؤنث، ألا وهي الكسر.

وعلينا أن نتذكر — هنا — أنّ التاء (تاء التأنيث) هي التي عُول عليها في الميز بين المذكر والمؤنث في هذه الصيغة من الماضي (قتل — قتلت) وأما التاء في: تقتل — تقتلين فهي منقولة عن تاء (أنت — أنتِ) وهما الضميران الدالان على الخطاب. فالتاء هنا أعمق في الدلالة على الخطاب منها في الدلالة على المؤنث. ولذا انصرفت اللغات الساميّة إلى الكسر بوصفه وسيلة أخرى معتادة في الميز بين المذكر والمؤنث (كما حصل في: أنت وأنتِ) وقد زادت بعض هذه اللغات (العربيّة والآراميّة والسريانيّة) النون بعد الكسر (تقتلين)، والنون وسيلة أخرى مطروقة في الميز بين المذكر والمؤنث (هم: هن، لم يكتبوا: لم يكتبن..).

٥ — وسار التفريق بين المذكر والمؤنث في المخاطبين والمخاطبات في خطّ مواز لما سار عليه مع الغائبين والغائبات، ولكن بالاعتماد على الحركات فحسب، إذ الضم علامة على المذكر والفتح علامة على المؤنث. ولم يتكأ على التاء كما حصل في صيغ

الغبية. فالتاء ملازمة للخطاب في جميع أحواله تذكيراً وتأنيثاً وإفراداً وجمعاً. ولذا كانت الحركة هي العُمدَة في الميز بين المذكر والمؤنث في الخطاب.

٦ — لقد كان حرف المضارعة في كل من العربية والحبشية والآرامية والأكدية هو الياء، وذلك في كل من الغائبين والغائبات. أمّا في السريانية فحرف المضارعة هو النون انسجماً مع المفرد. وقد استوت في ذلك صيغة المؤنث مع صيغة المذكر. أمّا العبرية فقد ميزت بين المذكر والمؤنث في الغائبين والغائبات بما مازت به بينهما في المفرد الغائب والغائبة، أي بالتاء، ثم استخدمت إلى ذلك الوسيلة الأخرى التي اعتمدت عليها معظم اللغات السامية الأخرى، ألا وهي الحركات؛ فكان الضم الطويل (الواو) علامة على المذكر في جميع هذه اللغات، والفتح الطويل (الألف) علامة على المؤنث (إلا في العربية فهو فتح قصير).

٧ — لم تفرّق اللغات السامية بين المذكر والمؤنث مع المتكلم والمتكلمين فـ «أقتل» صيغة لا تميز بين المذكر والمؤنث، وكذلك: نقتل. ولم تميز السريانية بين المفرد والجمع أيضاً، ف neqtol في هذه اللغة — كما في بعض اللهجات العربية في مصر وشمال إفريقيا — تدل على المتكلم والمتكلمين تذكيراً وتأنيثاً.

٨ — تميّزت العربية بإفراد صيغ للثنائية. وقد ميّزت بين الغائبين والغائبتين (يقتلان — تقتلان) ولكنها لم تميز بين المذكر والمؤنث في الثنائي المخاطب، فأشارت إليهما بصيغة واحدة (تقتلان).

ج فعل الأمر:

إن مبدأ تعامل اللغات السامية مع فعل الأمر هو من جنس تعاملها مع الفعل المضارع. انظر

الجدول الآتي:

تصريف فعل الأمر

الأكادية	الأرامية	العبرية		العشية	العربية	الضمائر
		في الوقف	في الوصل			
kušud	kēṭōl	—	kēṭōl	kéteḥ	uktu	المخاطب
kuš(u)dī	kēṭōl(ī)	kēṭōlī	kiṭēlī	kēṭēlī	uktuī	المخاطبة
kuš(u)dū	kēṭōl(ū)	kēṭōlū	kiṭēlū	kēṭēlū	uktuū	المخاطبون
kuš(u)dā	kēṭōl(ā)	—	kēṭōlnā	kēṭēlā	uktuina	المخاطبات

المراجع

(وقد وردت مرتبة وفقاً للصورة المختصرة التي جاءت عليها أثناء البحث)

بارث (١٩٠٣) =

J- Barth, (C. Brockelmann Die Femininendung t im Semitischen) angezeigt von j. Barth in:

ZDMG 57, 1903 pp 628 - 635

أبو البركات بن الأنباري =

أبو البركات بن الأنباري (توفي ٥٧٧هـ)، البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، تحقيق رمضان عبدالنوّاب، القاهرة ١٩٧٠م.

أبو بكر الأنباري =

أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، كتاب المذكر والمؤنث، تحقيق طارق عبد عون الجنابي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٨.

بروكلمان (١٩٠٤) =

C. Brockelmann, (Zur hebräischen Lautlehre) in : ZDMG 58, 1904, pp 518 - 524

بروكلمان (١٩٠٨) =

C. Brockelmann, (Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen) Bd, 1,

II, Berl in 1908 - 1913.

بروكلمان (١٩١٦) =

C. Brockelmann, (Semitische Sprachwissenschaft. Zweite verbesserte Auflage, Gernany 1916. وله ترجمة إلى العربية، قام بها د. رمضان عبدالنوّاب.

بروكلمان (١٩٨١) =

C. Brockelmann, (Syrische Grammatik) 13. unveränderte Auflage 'leipzig 1981.

بريتوريوس =

F. Praetorius, (Äthiopische Grammatik), Karlsruhe und leipzig 1886

بعلبكي = رمزي بعلبكي، الكتابة العربية والسامية، دار العلم للملايين، بيروت
١٩٨١.

بير جشتريس =

بير جشتريس، التطور النحوي، طبعة رمضان عبدالنواب، القاهرة ١٤٠٢ هـ —
١٩٨٢ م.

ابن التستري =

سعيد بن إبراهيم التستري (ت ٣٦١ هـ)، المذكر والمؤنث، تحقيق أحمد عبدالحيد
هريدي، القاهرة ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م.

جزينيوس =

Wilhelm Gesenius (Hebräisches und Aramäisches 'handwörterbuch uber das Alte Testament)

bearbeitet von Dr. Frants Buhl 17. Auflage. Germany 1962.

ابن جني (خصائص) =

أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار
الهدى، بيروت (بدون تاريخ).

ابن جني (اللمع) =

أبو الفتح عثمان بن جني، اللمع في العربية، تحقيق حامد المؤمن، بغداد ١٤٠٢ هـ
- ١٩٨٢ م.

ابن جني (المذكر) =

أبو الفتح عثمان بن جني، المذكر والمؤنث، تحقيق طارق نجم عبدالله، جدة
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

ديجن =

Rainer Degen, (Altaramaische Grammatik der Inschriften des 10 - 8. JH.CHR. Wiesbaden
1969.

دلان =

Gustaf Dalman, (Grammetik des Judisch - Palastinischen Aramaisch) Darmstadt 1981

الجوهري =

إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبدالغفور
عطار، القاهرة ١٩٥٦.

الزبيدي =

أبو بكر الزبيدي، لحن العوام، تحقيق رمضان عبدالنواب، القاهرة ١٩٦٤ م.

سودن =

Wolfram von Soden, (Akkadisches Handwörterbuch Bd. I-III, Otto Harrassowitz. Wiesbaden
1965.

سيبويه =

عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠ هـ) الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، الهيئة
المصرية العامة للكتاب.

ابن سيدة =

ابن سيدة الأندلسي، المخصص، بولاق ١٣١٦ - ١٣٢١ هـ.

ابن عصفور =

ابن عصفور الإشبيلي (ت ٦٦٩هـ)، المتع في التصريف، تحقيق فخرالدين
قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨م.

ابن عقيل =

ابن عقيل، المساعد، تحقيق محمد كامل بركات، مطبوعات جامعة أم القرى —
مكة المكرمة.

الفارسي =

أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)، المسائل العسكرية، تحقيق إسماعيل أحمد
عميرة، منشورات الجامعة الاردنية، عمان ١٩٨١.

الفراء =

يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، المذكر والمؤنث، تحقيق رمضان عبدالتواب،
القاهرة ١٩٧٥م

فلهاوزن =

J. Wellhausen, (Zwei grammatische Bemerkungen) in ZDMG 55, 1901, (PP 697 - 700).

فيشر (١٩٠٤) =

A. Fischer, (Miszellen) in: ZDMG 58, 1904, pp 871 - 875

فيشر (١٩٠٦) =

A, Fischer, (Das Geschlecht der Infinitive im Arabischen) in ZDMG 60, 1906 pp - 839 - 859.

فيلبي =

M. Philippi, (Anzeign: Barth's Nominalbildung in den semitischen Sprachen, II, angezeigt; von

M. philipi in: ZDMG pp. 149 - 172.

ماريوي =

ماريوي، لغات البشر، ترجمة صلاح العربي، قسم النشر بالجامعة الأمريكية
بالقاهرة ١٩٧٠.

مسلم =

الإمام مسلم، صحيح مسلم، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي.

مطر =

عبد العزيز مطر، لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، القاهرة
١٩٦٦.

ابن منظور =

ابن منظور الأفرقي (٧١١هـ) لسان العرب، دار صادر، بيروت (بدون تاريخ).

نولدكه (١٨٩٨) =

Theodor Noldeke, (kurzgefasste syrische Grammatik) zweite verbesserte Auflage, Leipzig 1898.

ابن هشام (شذور) =

ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محيي
الدين عبد الحميد (بدون مكان وبدون تاريخ).

ابن هشام (أوضح) =

ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي
الدين عبد الحميد، بيروت ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م.

الوشاء =

أبو الطيب الوشاء (ت ٣٢٥هـ)، المملود، والمقصود، تحقيق رمضان
عبد التواب، القاهرة ١٩٧٩.

ابن يعيش =

موفق الدين بن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت (بدون
تاريخ).

أخطاء وتصويباتها

الاصواب	الاصحوة	الخطأ
يخلص	١١	لص
«أنت» أو «أنتي»	١٣	«هه» أو «هي»
الإخبار	٢٤	الإخبار
مؤنث	٣١	مذكر
سبلة	٣٨	سنبلة
يؤوض عن	٤١	يؤوض عن
أثياء	٤١	أثنان
سبريت	٤٢	سبريت
شپ	٤٧	سب
٣٢	٥٢	٣١
went	٥٩	٥٥
سحيم	٦١	سحيم

مركز الكتاب العالمي
عمان - الاردن